أمام العرش

ميسرة و مبسطة

رواية الكاتب الكبير نجيب محفوظ ،
نقدمها بنفس لغتها ميسرة للناشئين ،
ليقرأوها بفهم تام ، واستمتاع بأحداثها كاملة ،
وسعادة بتجاوزهم قراءة القصة إلى قراءة الرواية .

محمد المعلم

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

© دار الشروق
القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

نجيب محفوظ

أمام العرش

تيسير وتبسيط محمد المعلم

الغلاف والرسوم: مصطفى حسين

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

شخصيات المحكمة

أوزوريس : معبود مصرى قديم . نشر الخير فى البلاد ، وعلّم الناس الزراعة . وحسب العقيدة المصرية القديمة ، عندما انتقل إلى العالم الآخر ، كان يحاكم الموتى .

إيزيس : زوجة أوزوريس ، وشريكته فى نشر الخير فى البلاد .وكانت رمزا للأمومة والإخلاص .

حورس : ابن أوزوريس وإيزيس . ورث عرش أبيه على الأرض .وأصبح رمزا للملوك الفراعنة .

١

انعقدت المحكمة بهيئتها المقدسة فى قاعة العدل . وكانت جدران القاعة عالية ، ومنقوشة بالرموز الإلهية ، وسقفها مذهبا .. تسبح فى سمائه « أحلام البشرية » .

وفى الصدر ، كان أوزوريس يجلس على عرشه الذهبى ، وإلى يمينه إيزيس تجلس على عرشها ، وإلى يساره حورس على عرشه . وعلى بعد قليل من قدميه ، تربّع تحوت كاتب الآلهة ، وأسند الكتاب الجامع إلى ساقيه المضمومتين .

وعلى جانبى القاعة ، صفت الكراسى المكسوة بقشرة من الذهب الخالص ، تنتظر الذين سيكتب لهم الخلاص من القادمين .

وقال أوزوريس :

ــ كُتِب على البشرية منذ القدم ، أن تصحبهم حياتهم فى الدنيا عند عبورهم عتبة الموت ، وتتبعهم ، كالظل ، حاملة أفعالهم ونواياهم ، وتتجسّد كلها فوق أجسامهم العارية .

وقد تقرر أن تكون هذه الساعة هى ساعة الحساب الفاصلة ، لمن حكموا مصر أو كان لهم دور فى تاريخها ..

فانعقدت هذه المحكمة ، لتقوم بسباحة طويلة عبر الزمن ، منذ بدأ تاريخ مصر القديم .. وتقدم ــ عبر تلك السباحة ــ نماذج من الحكام والأفراد ، وتصدر حكمها فيهم ، بعد أن تحسب لهم ما قاموا به ، وتحسب عليهم ما كان يؤخذ عليهم .

* * *

وأشار أوزوريس إلى حورس . فصاح الشاب بصوت جهورى :

ـ الملك مينا .

ودخل من الباب فى آخر القاعة ، رجل متلفع بكفنه ، عارى الرأس ، حافى القدمين . وأخذ يقترب بجسمه القوى ، وملامحه الواضحة ، حتى وقف على بعد ثلاثة أذرع من العرش ، فى خشوع كامل .

وأشار أوزوريس إلى تحوت كاتب الآلهة . فراح يقرأ من الكتاب :

ـ أعظم ملوك الأسرة الأولى . حارب الليبيين وانتصر عليهم . هاجم مصر السفلى وضمها إلى مملكته الجنوبية ، وأعلن نفسه ملكا على مصر كلها ، وتوّج رأسه بتاج مزدوج . حوّل مجرى النيل وأنشأ مدينة منف على الأرض التى نتجت عن التحويل .

وقال أوزوريس ، مخاطبا مينا :

ـ هات ما عندك .

فقال الملك مينا :

ـ لخّص تحوت كاتب الآلهة حياتى فى كلمات . ولكن ما أسهل الكلام وأشق العمل .

فقال أوزوريس :

ـ لنا رؤيتنا فى تقييم الرجال والافعال . فلا تبدد الوقت فى الثناء على نفسك .

فقال الملك مينا :

ـ ورثت مملكة الجنوب من أسرتى . وورثت معها حلما كبيرا : تطهير البلاد من الغرباء ، وإقامة وحدة أبدية بين مملكتى الجنوب والشمال . وكان صوت عمتى أوز أقوى محرك لاشعال ذلك الحلم الكبير . كانت تنظر إلىّ باشفاق وتقول :

ـ أتقضى عمرك فى الأكل والشرب والصيد ؟ .

أو تقول بكبرياء :

ـ لم يعلمنا أوزوريس الزراعة ، لنقتتل حول توزيع ماء الفيضان .

وقلت لزوجتى المحبوبة ، إننى أشعر بجذوة تتقد فى صدرى ، ولن تبرد حتى أحقق الحلم . ووجدتها زوجة رائعة . قالت لى بحماس :

ـ لا تدع الليبيين يهددون عاصمتك ، ولا تدع الناس يقسمون الأرض التى وحدها النيل .

وانكببت على تدريب الرجال الأشداء ، وصليت إلى الآلهة ، لتهبنى الرضا والنصر ، حتى تحقق ، على يدىّ ، الحلم الذى راود آبائى وأجدادى .

فقال أوزوريس :

ـ أزهقت من أرواح الليبيين مائة ألف ! .

ـ كانوا المعتدين يامولاى .

ـ ومن أرواح المصريين شماليين وجنوبيين ، مائتى ألف .

ـ راحوا فداء للوحدة .. ثم حل الأمن والسلام ، وتوقف نزيف الدم الموسمى بسبب النزاع حول النيل .

فسأله أوزوريس :

ـ لماذا لم تقنع قومك بالكلمة ، قبل اللجوء إلى السيف ؟ .

ـ فعلت ذلك مع جيرانى ، وانضم بعضهم دون قتال . ولكن حقق السيف فى أعوام ما لم تحققه الكلمة فى أجيال .

ـ يقدم كثيرون هذا المنطق ، ليغطوا إيمانهم بالعنف .

فقال مينا بحرارة :

ـ استحوذ على مشاعرى مجد مصر وأمنها .

ـ ومجدك الشخصى أيضا .

فقال الملك مينا بتسليم :

ـ لا أنكر ذلك . ولكن الخير عمّ البلاد .

ـ وكان لأسرتك وأعوانك النصيب الأكبر منه . وللفلاحين الحد الأدنى .

ـ مضى أكثر عهدى فى القتال والبناء . فلم أنعم بحياة القصور . ولم أهنأ بلذيذ الطعام والشراب . ولم أمس من النساء إلا زوجتى . وكان لابد من مكافأة الأعوان على قدر أعمالهم .

وطلبت إيزيس الكلمة ، وقالت :

ـ مولاى ، أنت تحاكم بشرا لا آلهة . وكفى هذا الرجل الشجاع أنه زهد فى

النعيم والكسل . فطهّر البلاد من الدخلاء ، ووحد مصر ، فأطلق قوتها الكامنة ، وكشف عن خيراتها المطمورة . ووفر للفلاحين الأمن والسلام . إنه ابن اعتز ببنوته .

وصمت أوزوريس قليلا ، ثم قال :

ـ أيها الملك ، اتخذ مجلسك على أول كرسى فى الجناح الأيمن .

فمضى الملك مينا إلى كرسيه . وأدرك أنه أصبح من أهل النعيم فى العالم الآخر .

٢

وصاح حورس :

ـ الملك زوسر ووزيره أمحتب .

وجاء من الباب فى آخر القاعة رجلان .. أولهما وسيط القامة متين البنيان . وثانيهما نحيل أميَل إلى القصر . وكلاهما متلفع بكفنه ، عارى الرأس ، حافى القدمين . تقدما نحو العرش حتى مثلا بين يدى أوزوريس .. الملك ووراءه الوزير .

فقال أوزوريس مخاطبا أمحتب :

ـ تقدم ، وقف فى محاذاة الملك . فلا فرق فى هذا المكان بين ملك ورعية .

فصدع أمحتب بالأمر . وراح تحوت يقرأ صفحة جديدة .

ـ الملك زوسر ، أسس الأسرة الثالثة ، غزا النوبة ، اكتشف مناجم النحاس فى الصحراء الشرقية ، بنى الهرم المدرج .

والوزير أمحتب ، حكيم حفظت الأجيال حِكَمه ، وبرع فى الطب والفلك والسحر والهندسة ، وقدّسه الناس بعد وفاته بمئات السنين .

ودعا أوزوريس الملك زوسر للكلام ، فقال :

ـ ورثت مملكة موحدة ، مترامية الحدود ، وفيرة الخيرات ، تحب السلام ، ولكن يطمع فيها المحيطون بها . فابتكرت سياسة لنفسى ، ولمن يجىء بعدى ، تقوم على أن الدفاع عن مصر يتطلّب غزو القاطنين وراء حدودها . ولما كانت النوبة هى أكثر البلاد التى تتسلل إلى وطنى ، فقد قررت توسيع الحدود الجنوبية ، بغزو النوبة الشمالية ، وإقامة معبد للإله فيها .

وعرف أمحتب ، بعلمه وسحره ، الكنوز المخبوءة فى الصحراء الشرقية . فأرسلت البعثات لاستكشاف بطن الأرض . فعثرنا على مناجم النحاس ، ووجدنا فيه منافع قيمة فى السلم والحرب . وتكاثر الخير . فشيدت الهرم المدرج . كما شجعت العلوم وكافأت النابغين فيها ، ومضت الأيام فى عهدى ، تحمل لمصر التقدم والقوة .

ودعا أوزوريس أمحتب للكلام ، فقال :

ـ نشأت أحب العلم والمعرفة . ودرست على كهنة منف العظام ، فحصلت على أعلى الدرجات فى الطب والهندسة والفلك والسحر والحكمة . ولما علم الملك بتفوقى ، دعانى إلى العمل فى حاشيته ، رغم انتمائى إلى الشعب الفقير . فأثبت جدارتى فى كل ما كلفنى به . فولّانى الوزارة . وعهد إلىّ ببناء الهرم ، فكان تحفة البناء فى عصره .

قال أوزوريس للملك زوسر :

ـ غزوت النوبة دون أن تبدر منها أى بادرة اعتداء على حدود مملكتك .

فقال الملك زوسر :

ـ قلت يامولاى ، إننى اهتديت إلى فكرة الدفاع عن الحدود بغزو القائمين وراءها .

ـ نظرية لا يقول بها إلّا قوىّ يضمر العدوان ..

ـ كان واجبى الأول أن أدفع عن بلادى أى أذى محتمل .

ـ وشيدت معبدا للإله ، وخصّصت له أراضى كان ينتفع منها الفقراء .

ـ ولكن للمعابد حقوقا فوق كل الحقوق .

ـ كلام غير مقبول ، إذا لم تراع الظروف والملابسات .

ولاذ الملك بالصمت ، فقال أوزوريس :

ـ ولم توفّر الرعاية الكافية لعمال المناجم ، فهلك منهم كثيرون .

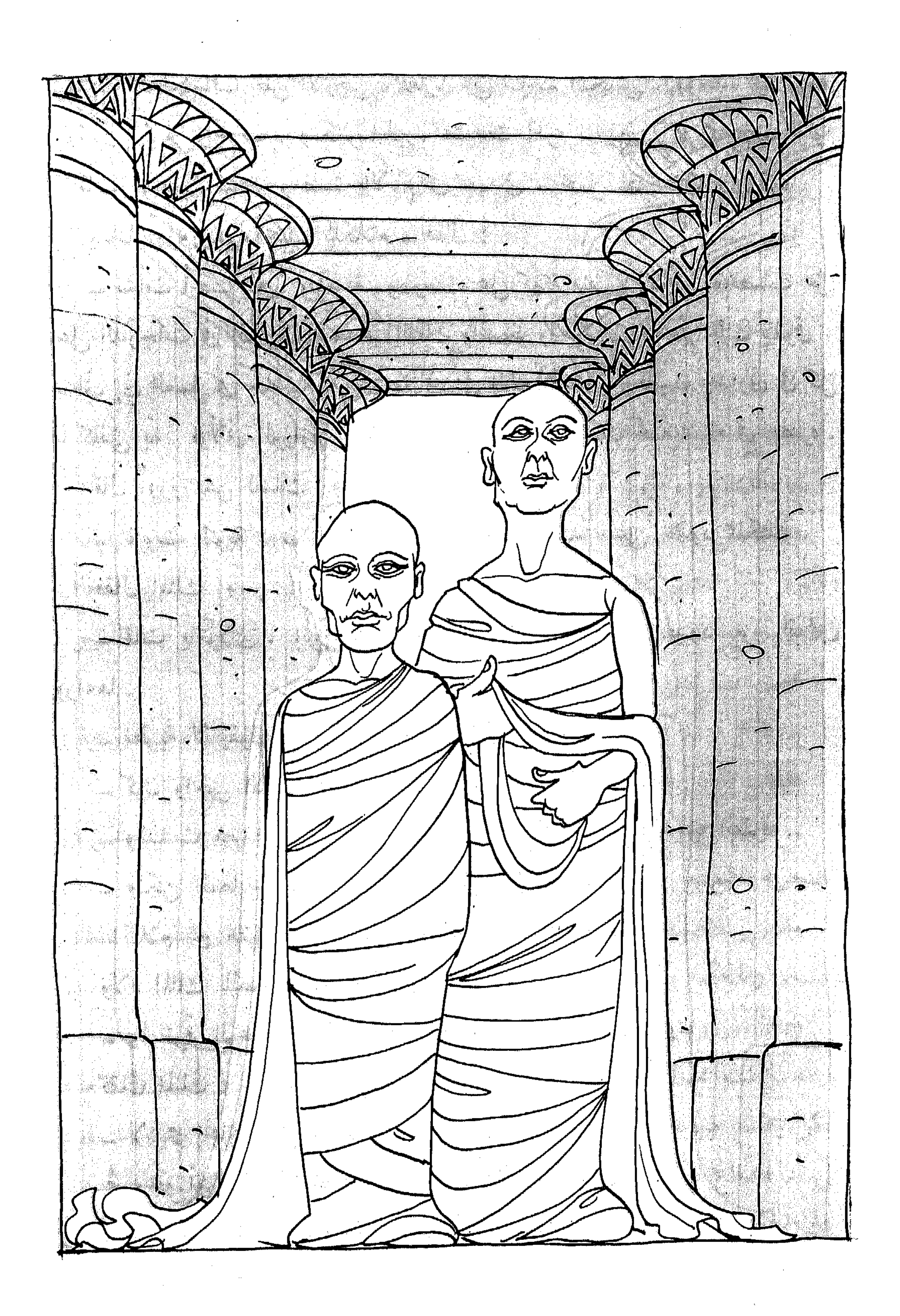
فقال الملك :

ـ لا يتم إنجاز عمل كبير بدون تضحية وضحايا .

ثم وجه أوزوريس الخطاب إلى الوزير أمحتب ، وقال :

ـ حدثنى : ماذا كان موقفك من سياسة الملك ؟ .

فقال الوزير أمحتب :



ـ كان رأيى أن العلاقات التجارية أفضل نتيجة من الغزو ، لتأمين الحدود . وأن نفقات المعبد يجب أن تؤخذ من مصر ، ويعفى منها أهالى النوبة الفقراء . كما رجوت ألا نرسل البعثات إلى الصحراء الشرقية ، قبل أن نوفر لها الرعاية الطبية والتدريب الكافى . ولكن الملك ، كان متلهفا على تحقيق الأمان والرخاء لمصر وأهلها .

فقال له أوزوريس :

ـ لا تحاول الدفاع عن غيرك .. وحسبك الدفاع عن نفسك .

فطلبت إيزيس الكلمة ، وقالت :

ـ زوسر ملك عظيم رغم هفواته . وأمحتب ابن عزيز تتشرف به أمّة ..

وهنا قال أوزوريس :

ـ أيها الملك ، سأكتفى بلومك . فاجلس أنت ووزيرك بين الخالدين .

فجلس زوسر إلى يمين مينا . وجلس أمحتب إلى يمين زوسر .

٣

ونادى حورس :

ـ الملك خوفو .

فجاء الملك بقامته المتينة المائلة للطول ، عارى الرأس ، حافى القدمين ، متلفعا بكفنه ، حتى مثل أمام العرش بخشوع .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ الملك خوفو ، رأس الأسرة الرابعة ، صاحب الهرم الأكبر ، نظم الإدارة تنظيما لم نعرفه من قبل ولا من بعد . وفى عهده ، فاضت الأرض بالخيرات ، وعمرت الأسواق ، وبلغت الزراعة والصناعة والفنون أقصى درجات الرفعة . وانطلقت هيبة فرعون فى الآفاق ، ساطعة كالشمس ، فهابتها القبائل وشمل السلام البقاع والناس .

ودعا أوزوريس الملك للكلام ، فقال :

ـ فُتِنت منذ صغرى بالدقة والنظام . وآمنت بأنه يجب أن يكون لكل نشاط

قوانين وتقاليد ، لا فرق فى ذلك بين الشرطة والنحت أو العمارة أو الحياة الزوجية . وأصبحت مصر مجموعة من التقاليد السامية والنظم الدقيقة . وهو ما أعاننى على تشييد أعظم بناء عرفه الإنسان . اشتركت فيه الألوف المؤلفة على مدى عشرين عاما ، فلم يتسلّل إليه اضطراب أو إهمال ، ولم يحرم أحد من العاملين فيه من العناية والرعاية ، ولم يغب فى الوقت نفسه عن عين الرقابة الساهرة . هكذا خاض قومى تجربة فذة ، بنجاح مثالى ليس له نظير.

فسأله أوزوريس :

ـ هل سخرت أمتك لبناء قبر لك ؟ .

فقال الملك خوفو :

ـ لو أردت قبرا لحفرته فى الجبل ، بعيدا عن الأعين الطامعة . ولكنى شيدت رمزا للخلود الإلّهى ، يحوى من الأسرار ما لا يحيط به عقل بشر . وقد تنافس الناس فى العمل به . فأقمت لهم مدينة كاملة ، وسعيدة ، ومقدسة . وكان الجهد يبذل من أجل الإله وحده . كان عملا يليق بالاحرار لا العبيد ! .

والتفت أوزوريس إلى الجالسين إلى يمينه ، الذين كتب لهم الخلود السعيد فى العالم الآخر ، وقال :

ـ يُسمح بالكلام لمن يشاء .

فقال الملك مينا :

ـ عمل مجيد ، يذكرنى ببناء منف العظيمة ، التى لم يمهلنى العمر لأتمّها .

وقال الملك زوسر :

ـ كان الأفضل ، توجيه القوة المتوفرة للغزو وتأمين الحدود .

فقال الملك خوفو :

ـ كانت خيرات البلاد المجاورة تأتينى بلا قتال . وكان حرصى على أرواح رعيتى لا يقل عن حرصى على المجد والخلود .

فقا له أوزوريس :

ـ ولكنك أزهقت روحا بريئة ، عندما تنبأ لك رجل بأن عرشك سيرثه طفل ليس من سلالتك .

ـ على الملك أن يدافع عن عرشه ، دفاعه عن وحدة أمته . وفى سبيل ذلك .. يصيب ويخطئ .

ـ ألم تكن فى ذلك تتحدى إرادة الإله ؟ .

ـ نحن نفعل ما نراه واجبا . ويفعل الإله ما يشاء .

وطلبت إيزيس الكلمة ، وقالت :

ـ هذا ملك منير ، مثل الشمس ، فى سماء العروش . وكم من امبراطوريات تلاشت ، وبقى هرمه شامخا . وكثيرا ما كانت عظمته مثار حسد لدى العاجزين من بنى وطنه ومن الغرباء .

وعند ذلك قال أوزوريس :

ـ اجلس أيها الملك على كرسيك بين الخالدين .

٤

ونادى حورس :

ـ الحكيم بتاح حتب .

فدخل رجل نحيل صغير الجسم وقور ، لم يقلل من وقاره عرى رأسه وعرى قدميه . وتقدم على مهل ، حتى مثل فى أدب ، أمام العرش .

ومضى تحوت كاتب الآلهة يقرأ :

ـ الحكيم بتاح حتب ، عاش مائة وعشرة سنوات . عمل وزيراً للملك أسيسى ، أحد ملوك الأسرة الخامسة . له وصايا قيمة ذائعة الصيت .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ تلقيت العلم فى معبد بتاح . وظهر تفوقى منذ صباى . وعملت كاهنا مدة من الزمن ، حتى اختارنى الملك وزيرا له . وكانت أيام المجد والعظمة قد زالت ، وكأنها لم تكن . وتولّى العرش ملوك ضعاف لا قوة لهم ولا حكمة . شغلتهم أهواؤهم عن البناء والتدبير وتحقيق الأهداف . فقوى نفوذ الكهنة . وطمع حكام الأقاليم فى السلطة والمكاسب والمآرب .

فعانى الفلاحون من الظلم والهوان ، وارتفعت أنات الشكاوى ، وأصبحت الحياة قاتمة .

ودأبت على تأمل الأحوال بمرارة ، وأذهلتنى العلاقة المبهمة بين الآلهة والناس . ولم أقصّر فى إبداء المشورة . ولكنها ضاعت وسط التسيب والأنانية . ولما بلغت العاشرة بعد المائة ، استدعانى الملك ، وأمرنى أن أضع كتابا أجمع فيه مختارات من وصاياى .. ففعلت .

فقال له أوزوريس :

ـ أسمعنا بعضا من وصاياك .

فقال بتاح حتب :

ـ إذا دعاك كبير إلى طعام ، فاقبل ما يقدمه لك ، ولا تتكلم إلا عندما يسألك .

ـ ما سر اهتمامك بآداب المائدة فى وصاياك ؟ .

فقال بتاح حتب :

ـ قصدت فى الظاهر آداب المائدة ، ولكنى فى الحقيقة قصدت التعريض بجشع الكهنة ، الذين كانوا يطالبون بالمزيد من الأوقاف والمخصصات ، ويتخمون بالمآكل والمشارب .

فقال أوزوريس :

ـ أسمعنا مزيدا من وصاياك .

فقال بتاح حتب :

ـ لا تخن من ائتمنك ، لتزداد شرفا ويعمر بيتك . وقصدت حكام الأقاليم ، الذين دأبوا على بسط نفوذهم ، متحدّين وحدة المملكة .

وهنا تساءل الملك مينا :

ـ هل نسوا الدماء التى سفكت فى سبيل الوحدة .

فقال الملك خوفو :

ـ وكيف استهانوا بالتقاليد والأخلاق التى تقدست فى عهدى .

وأشار أوزوريس إلى الحكيم بتاح حتب ليواصل حديثه ، فقال :

ـ قلت أيضا « إذا دخلت منزل غيرك ، فاحذر أن توجه ذهنك إلى مخدع

نسائه ، فكم هلك أناس من جراء ذلك » ..

وقد قلت ذلك بناء على ماذاع عما يجرى فى حريم القصر.

فسأله أوزوريس :

ـ ألم يكن الملك يسىء معاملة حريمه ؟

ـ من أجل ذلك قلت أيضا : « إذا كنت عاقلا ، فدبّر منزلك وأحب زوجتك ، شريكتك فى حياتك ، وقدّم لها الطعام والملابس ، وأحضر لها العطور ، وأدخل عليها السرور ، ولا تكن شديدا معها ، فباللين تملك قلبها ، وأدّ مطالبها الحقة ليدوم معها صفاؤك ويستمر هناؤك .

فقال أوزوريس :

ـ أسمعنا وصية موجهة للجميع .

ـ لا تترك التزيّن بزينة العلم ودماثة الأخلاق .

فقال الملك مينا :

ـ لم يكن فى عصرى حكماء ، ومع ذلك حرر الرجال أرضهم ووحدوا مملكتهم . وهاهو عصر انحلال وفساد ، لم يتمخض عن فعل شىء ذى قيمة ، ولكنه ترك بعض الكلمات الجميلة . فما جدوى الحكمة ؟ .

فاعترض خوفو قائلا :

ـ الحكمة تعيش كالهرم وأكثر.

وقالت إيزيس :

ـ لا تقللوا من قيمة ابنى الحكيم . نحن نحتاج إلى الحكيم فى عصور التدهور ، كما نحتاج إلى الطبيب فى أيام الأوبئة .

وسيظل للكلمة الطيبة توهجها على الدوام .

وأخيرا قال أوزوريس :

ـ اذهب أيها الحكيم إلى كرسيك بين الخالدين .

٥

وصاح حورس بصوته الجهورى :

ـ ثوار فترة الظلام ، الممتدة ما بين سقوط الدولة القديمة وقيام الدولة الوسطى .

فدخلت جماعة متفاوتة الأشكال والأحجام . ومضت فى أكفانها عارية الرءوس حافية الأقدام ، حتى مثلت فى صف واحد أمام العرش .

وتلا تحوت كاتب الآلهة صفحة جديدة :

ـ هؤلاء هم رءوس الثورة ، قادوا الجماهير الغاضبة فى ثورة دموية مخربة ، ثم حكموا البلاد عهدا طويلا ، امتد ما بين سقوط الدولة القديمة وقيام الدولة الوسطى . ولم يتركوا وراءهم أثرا يدل عليهم ، إلا المعابد المهدّمة والقبور المنهوبة والذكريات المرعبة .

فقال أوزوريس :

ـ رشحوا من يمثلكم للكلام .

فأشاروا إلى رجل نحيل طويل ، جامد الوجه كأنما شقّ من صخر .

وقالوا :

ـ أبنوم ، فهو أول من دعا إلى العصيان والقتال .

فدعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال أبنوم :

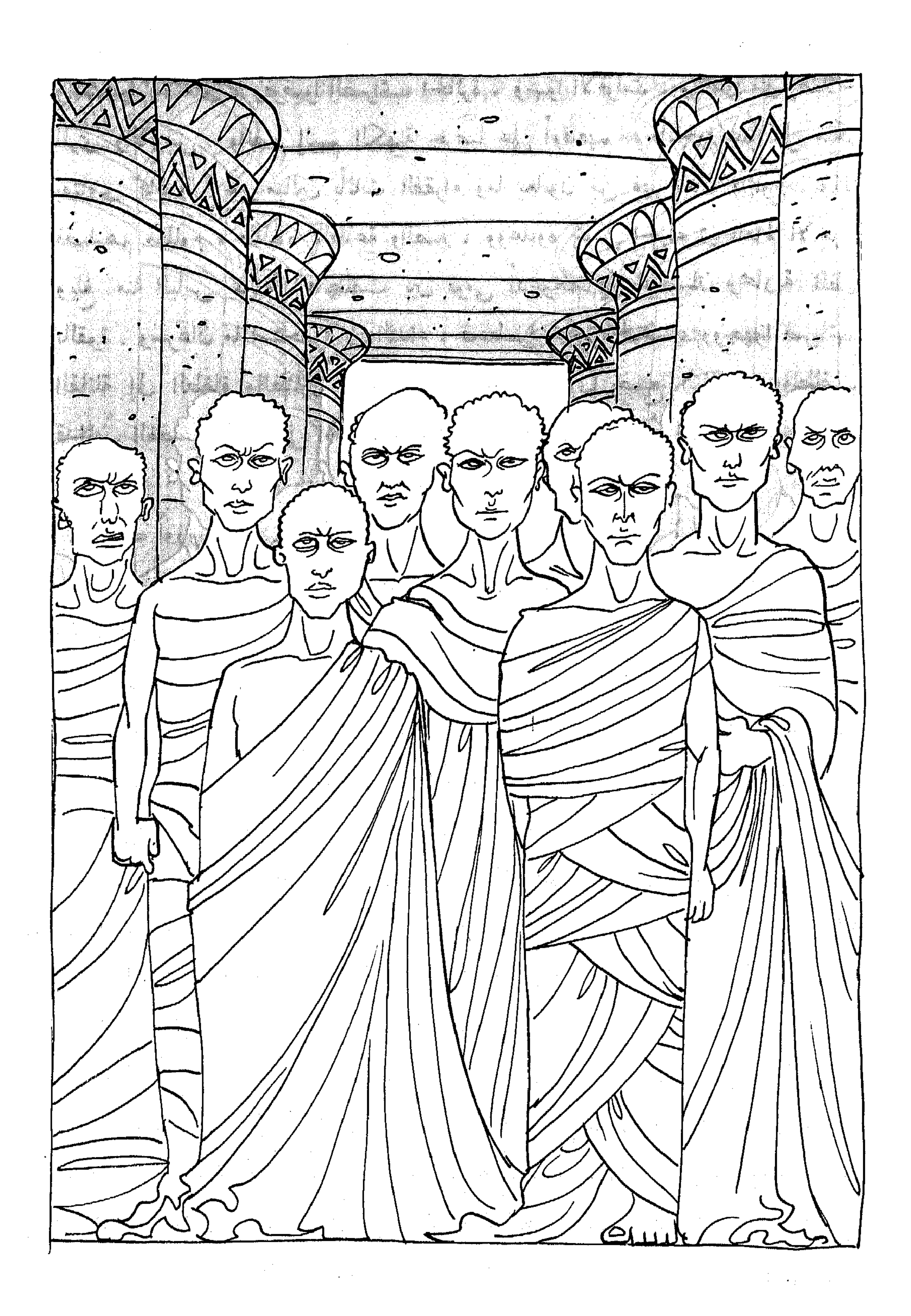
ـ تجاهل التاريخ أسماءنا وأفعالنا . فهو تاريخ يدونه الخاصة . ونحن من عامة الفلاحين والصناع والصيادين . ومن عدالة هذه القاعة المقدسة أنها لا تُغفل أحدا . وقد تحملنا من الآلام فوق ما يتحمل البشر . ولما انصب غضبنا الثائر على عفن الظلم والظلمة ، نعتوا ثورتنا بالفوضى ونعتونا باللصوص . وما كانت إلا ثورة على الطغيان ، باركتها الآلهة ..

فسأل خوفو :

ـ كيف تبارك الآلهة العدوان على المقدسات ؟ .

فقال أبنوم :

ـ بدأت المأساة بضعف الملك بيبى الثانى وعجزه ، لكبر سنه ، وعدم معرفته بما



يجرى حوله ، وتصديقه لأكاذيب المنافقين له . فاستقل حكام الأقاليم بأقاليمهم ، واستبدوا بالأهالى ، وفرضوا الضرائب الجائرة ، ونهبوا الأقوات ، وأهملوا أى إصلاح للرى والأرض . وانضم إليهم الكهنة حرصا على أوقافهم ، فأباحوا لهم كل منكر بفتاوى كاذبة ، غير مبالين بأنات الفقراء وما يعانون من قهر وذل وجوع . وكلما قصدهم مظلوم ، طالبوه بالطاعة والصبر ، ووعدوه بحسن الجزاء فى العالم الآخر . وبلغ منا اليأس غايته . فانطلقت بين قومى أدعوهم إلى العصيان ومحاربة الظلم بالقوة . وسرعان ما استجابوا إلى النداء ، فحطموا حاجز الخوف ، ووجهوا ضرباتهم القاتلة إلى الطغاة والظالمين . وسرت النار المقدسة إلى جميع البلاد ، وانطلقت قذائف الغضب الثائر على الحكام والموظفين ورجال الدين . ثم استولينا على مقاليد الحكم .

فقال أوزوريس :

ـ أما قرأت أشعار إيبوور الحكيم التى ترثى المقدسات وما حل بالصفوة وضياع القيَم فى عهدكم ؟ .

فقال أبنوم :

ـ كان أيبوور شاعرا حقا ، ولكنه كان ينتمى إلى طبقة السادة الظالمين . ففاضت دموعه حزنا على الطغاة ، وعظُم عليه أن يحل محلهم أبناء الشعب .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ أنت تتحدث ياأبنوم ، من منطلق حقد أسود . وهو إثم كبير .

فقال أبنوم :

ـ السادة الظالمون هم الذين زرعوا فى صدورنا هذا الحقد .

فقال الملك زوسر :

ـ ما أسمع .

ـ عجيب ، وحق الآلهة ، ما أسمع . ما مصر إلا « مركَّب » من تقاليد مقدسة ، إذا اختل منه عنصر تطاير البناء وتفتت . ففرعون هو الإله المجسد . والصفوة هم نوابه الذين يعكسون نوره . والموظفون هم أتباعه المبلغون لرسالته . فكيف يحل مكان كل هؤلاء ، قوم من الفلاحين والصناع والصيادين ؟ .

فقال أبنوم :

لقد حلوا محلهم بالفعل ، وأثبتوا أنهم خير منهم . وأثبتوا أن الآلهة تتجسد فيمن يرفع راية العدل والرحمة ، أيًّا يكون ..

فهتف الملك زوسر :

ـ يالك من وقح ! .

فالتفت إليه أوزوريس قائلا :

ـ لا اسمح بتجاوز الأدب فى المناقشة . اعتذر .

فقال زوسر فى خشوع :

ـ أقدم المعذرة والأسف .

فقال أوزوريس مخاطبا الجالسين على كراسى الخلود :

ـ تسمح المحكمة لكم بالمناقشة ، ولكن فى حدود الأدب .

وتذكروا جيدا أنكم ستناقشون أناسا جدّت لهم معتقدات غير معتقداتكم .

ثم التفت إلى أبنوم ، وقال :

ـ كان عهدكم عهد ظلام . فلم يترك آثارا ولا وثائق ؟ .

فقال أبنوم :

ـ ذلك من فعل المؤرخين وإغفالهم لنا . لقد أقام الفلاحون حكومة من أبنائهم ، حكمت البلاد ، فاستتب الأمن ، وانتشر العدل ، وامتد ظل الرحمة . شبع الفقراء ، وتلقوا العلم والمعرفة ، وتولوا أكبر المناصب . وقامت دولة لا تقل فى عظمتها عن دولة الملك خوفو . ولكنها لم تبدد المال فى بناء الأهرامات ولا فى الحروب . وأنفقته فى النهوض بالزراعة والصناعة والفنون وتجديد القرى والمدن . ولما رجعت مصر بعدنا إلى عصر الملوك ، أحرقوا وثائق البردى المسجلة فيها أعمالنا .

فقال الملك خوفو :

ـ غابت عنك الحكمة من بناء الهرم .

وقال الملك زوسر :

ـ وغابت عنك الحكمة من إعلان حرب لغزو بلد على الحدود .

فقال أبنوم :

ـ كان شعارنا أن تربية فلاح خير من بناء معبد .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ نطقت بالكفر .

فقال أبنوم :

ـ ليس الإله بحاجة إلى معبد . ولكن الفلاح بحاجة إلى التربية . من أجل دلك باركتنا الآلهة ، فحكمنا مئات السنين فى سلام ورخاء .

فسأل الملك زوسر :

ـ إذن فلماذا انهارت مملكتكم .

ـ انهارت عندما نسى الحكام أصلهم الذى نشأوا فيه ، وتوهموا أنهم منحدرون من صلب « رع » ، فأصابهم التكبّر ، وتسلّل إليهم الظلم ، فنزل بهم ما ينزل بكل ظالم .

فقال أوزوريس :

ـ تخلل ثورتكم ارتكاب جرائم فاضحة لا يقرها دين أو خلق أو قانون .

فقال أبنوم :

ـ أشهد أمام عدالتكم بأننى لم آمر بها ، ولم يبلغنى خبر عنها ..

وهنا قالت إيزيس :

ـ أقر لهذا الابن بأنه من أحكم أبنائى وأنبلهم . سعدت بلادى فى عهده سعادة لم تذقها من قبله ولا من بعده .. وإيمانه يشهد له بالصدق والتقوى . أما ما ارتكب من جرائم فى ثورته ، فلا تخلو الجماهير الثائرة من مجرمين يندسون فى جموعها ، يشبعون نزواتهم .

وفكر أوزوريس وقتا ثم قال :

ـ اذهبوا ياسادة إلى مجالسكم بين الخالدين .

٦

ونادى حورس :

ـ الملكة حتشبسوت .

فدخلت امرأة متوسطة القامة ، مليئة البناء ، ومضت فى كفنها حتى مثلت أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ مضى عصرها فى سلام ورخاء . وقد شيدت معبد الدير البحرى . وأحيت الصلات ببلاد نبت ، وأحضرت منها شجرة المر ، وغرسته فى ساحة المعبد . وانهالت عليها الجزية من البلاد التابعة لمصر ، فانتشر الثراء ورضى الناس .

ودعاها أزوروريس إلى الكلام ، فقالت :

ـ كنت الوحيدة المستحقة لعرش أبى تحتمس الأول . فأنا آخر من بقى من ذرية الملكة أحعموس ، ودمائى ملكية إلهية بخلاف أخى تحتمس الثانى ، الذى كان ابنا لزوجة غير شرعية تدعى موت نفرت ، وأخى تحتمس الثالث الذى كان ابنا لمحظية تدعى إزيس .

وقد اضطررت للزواج من تحتمس الثالث ، احتراما لتقاليد بالية ، تستعْيب حكم النساء . وعمل كاهنا فى معبد آمون . ولم يكف عن المكايد للوصول إلى العرش . وعاونه على ذلك كهنة آمون . وقد تغلّب علينا أخى تحتمس الثانى بفضل تنظيم حزبه ، وانتزع الملك منا . ولما مات عاد الحكم إلىّ ومعى تحتمس الثالث . وقد فرضت حصارا حوله من الرقابة ، لابطال مكائده ، فانزوى فى الظل لا قيمة له . واستعنت برجال من أكفأ الرجال وأعظمهم . ووهبت للناس عصرا ذهبيا من السلام والرخاء ، حتى آمنوا بالمرأة وقدرتها على الحكم ..

فقال أبنوم :

ـ فى عهدنا الذى دفنتموه فى الظلام ، حكمت ملكتان عظيمتان .

وسألها الحكيم أمحتب :

ـ ولماذا لم تدعّمى عرشك بإشراك أخيك فى الحكم ؟ .

فقالت حتشبسوت :

ـ لم يكن مثلى من سلالة الشمس . وكانت سابقته فى تدبير المكائد لى ، أوجبت علىّ الحذر منه . وقد أشاروا علىّ باغتياله ، ولكننى كرهت الغدر وسفك الدماء .

فقالت إيزيس :

ـ ابنة تفخر بها أى أم . وليست فى حاجة إلى دفاع .

وقال أوزوريس :

ـ إلى كرسيك بين الخالدين .

٧

ونادى حورس :

ـ الملك تحتمس الثالث .

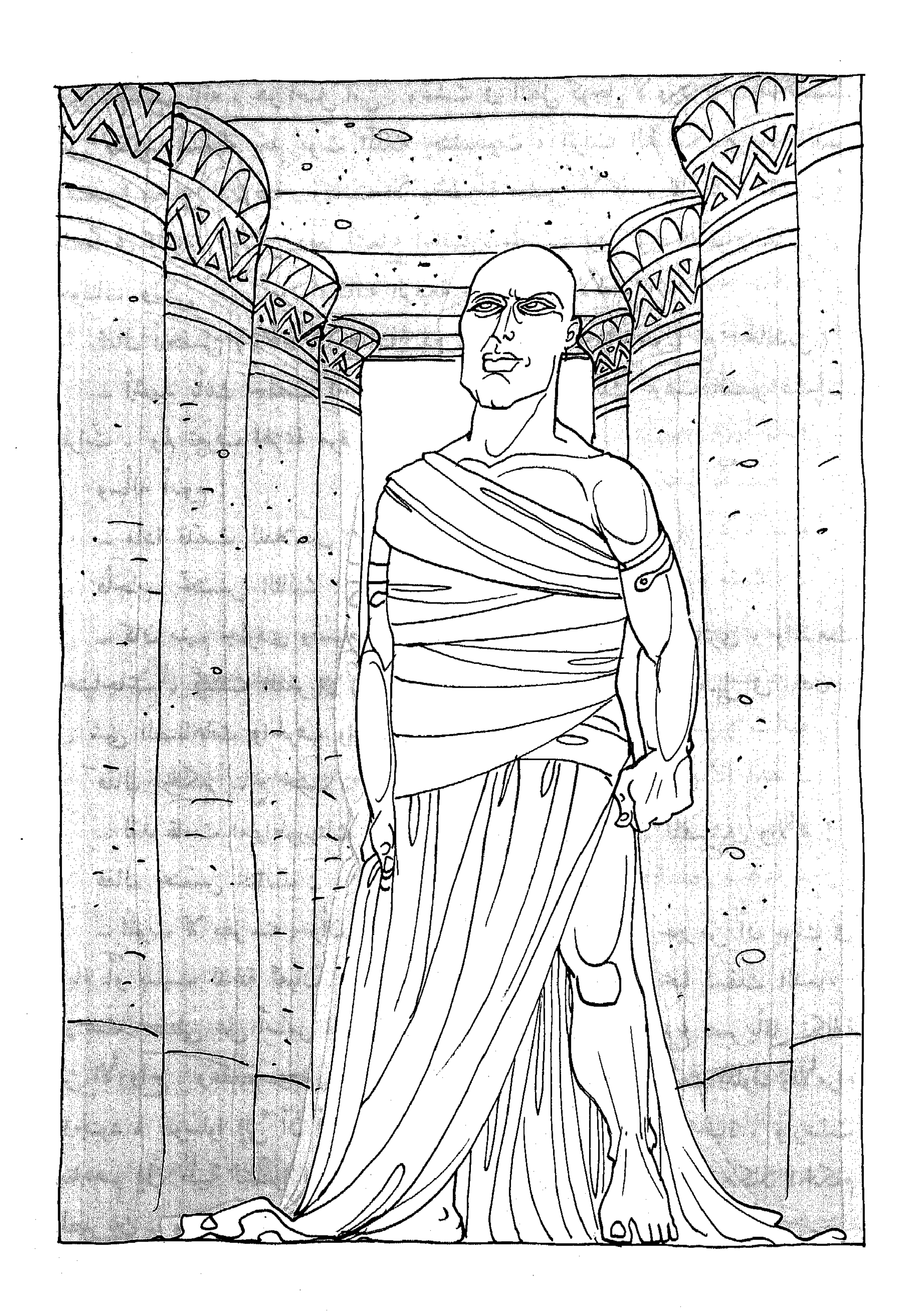
ودخل رجل قصير القامة ، متين البنيان ، تنطق معالم وجهه بالجلال . فتقدم متلفعا بكفنه ، حتى مثل فى خشوع أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ تولى العرش عقب وفاة حتشبسوت . فطهّر الإدارة من خصومه ، وقبض على النظام بيد من حديد . أكرم كهنة آمون ، ووضعهم فى منزلة السيادة ، على غيرهم من الكهنة وأعد جيشا وأسطولا لم تعرف البلاد لهما نظيرا من قبل . وخاض غمار حروب عديدة ، تمخضت عن إنشاء أكبر امبراطورية شهدها العالم القديم حتى وقته ، وخضعت لسلطانها آسيا الصغرى وأعالى الفرات وجزر البحر ومستنقعات بابل وليبيا وواحات الصحراء وهضاب الصومال وشلالات النيل العليا . فاصبحت مصر ملتقى الأجناس من جميع الأمم ، ومستودع الخيرات والسلع . وأقام المعابد والحصون والمسلات فى مصر وجميع البلاد التابعة لها . وترك وراءه وطنا يتربع فوق قمة العظمة والحضارة .

فدعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال :

ـ ذقت الظلم فى مطلع حياتى ، كما لم يذقه ملك . كنت أحق إخوتى بالعرش ،



لما أودعته فيّ الآلهة من قوة ، ولما حصّلته مس علوم الدنيا والدين . ولكنى حرمت من حق ، لسبب تافه ، هو أصل أمي . وعشت فى الظل كرجل لا وزن له . ولما قبضت على مقاليد السلطة بعد موت الملكة حتشبسوت ، أنزلت العقاب بالرجال الذين اغتصبوا سلطتى الشرعية . وكانت الامبراطورية حلمى الأكبر ، لا حبًّا فى القتال أو طمعًا فى الثراء ، ولكن دفعا لشعاع الحضارة المصرية ليعم نوره الأقوام الذين من حولنا ، ولكى يحتل آمون مكانته الرفيعة بين جميع الآلهة .

فقال أحمس (وكان قد جاء فى دوره ، وحُكِم له بالدخول مع الخالدين) :

ـ أشهد بأنك حققت أحلامنا جميعا . وحسبك أنك عرفت النصر عشرات المرات ، ولم تعرف الهزيمة مرة واحدة .

وسأله أبنوم :

ـ ماذا قدّمت للفلاحين ؟ .

فأجاب تحتمس الثالث :

ـ كان منهم جنودى وضباطى وقوادى . وقد أصلحت وسائل الرى ، وأشبعت احتياجاتهم ، فقتلت الفقر فى ربوعهم ، وتحوّل منهم جمع غفير للعمل فى المدن ، فى شتى الصناعات والحرف والتجارة .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ لقد قامت امبراطوريتك على الآلاف المؤلفة من جماجم المصريين والأمم ! .

فقال تحتمس الثالث :

ـ الموت لا مفر منه . وأن يموت الإنسان وهو يبنى المجد ، خير من أن يهلك فى وباء أو بسبب لدغة ثعبان . والحق أننى لم أكن جبارا ولا محبا لسفك الدماء . ورسمت خططى على أساس المفاجأة والاتقان ، لأحصل على أسرع نصر بأقل تكلفة من الأرواح . وعقب حصار مجدد ، وقع فى يدى جميع أعدائى من الملوك والأمراء والجنود ، فتوسلوا إلىَّ أن أهبهم الحياة . فرق قلبى لهم ووهبتهم الحياة ، وأرسلت أبناءهم إلى طيبة ليتلقوا العلم والحضارة ، وليتأهلوا لحكم بلادهم مكان الحكام المصريين ، وهى سياسة إنسانية حكيمة لم تعرف من قبلى .

فقالت الملكة حتشبسوت :

ـ لولا الثراء الذى تركته لك ، ما استطعت أن تحشد حملة واحدة من حملاتك العديدة على آسيا .

فقال تحتمس الثالث :

ـ حقا ، أورثتنى ثراء فى المال ، ولكنك تركت الجيش فى حال تستحق الرثاء ، وسرى الفساد بين رجالك المقربين ..

فقالت حتشبسوت :

ـ مازلت حاقدا ، سيئ الظن ، فاسد الطوية ، ومازلت مصرا على اتهامى فى شرفى دون دليل ..

فقال أوزوريس :

ـ حسبكما تبادل للكلمات الجارحة ..

وهنا سألته إيزيس :

ـ أكنت تحبها يابنى ؟ .

فقال تحتمس الثالث :

ـ كانت تسخر من قصر قامتى ، التى سجد أمامها ملوك جميع الأمم .

فقالت إيزيس :

ـ هذا الابن العظيم ، جدير بأن تفخر به مصر على مدى التاريخ .

فقال أوزوريس :

ـ اذهب إلى مجلسك بين الخالدين .

٨

ونادى حورس :

ـ الملك أمنحتب الثالث والملكة تيى .

ودخل الزوجان الملكيان . وتقدما فى كفنيهما ، حتى مثلا أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ دعيت الملكة تيى مع الملك ، لمشاركتها له فى الحكم . وكان عهد هذا الملك

عهد رخاء وعز ، لم يسبق له مثيل ، استقبلت مصر فيه خيرات الأمم وأموالها . وسهر على امبراطوريته بيقظة وكفاءة . فأدّب أى متمرد أيًّا كان موقعه . واستمتع بالحياة كما لم يستمتع بها ملك من قبل . فشيّد القصور والمعابد ، وعشق الطعام والشراب والنساء . وفى آخر أيامه تزوج من ابنة ملك متيانى ، وكانت فى سن أحفاده ، فعجّلت بوفاته .

ودعاه الملك للكلام ، فقال :

ـ ورثت عن جدى العظيم تحتمس الثالث ، امبراطوريته . فعقدت العزم على أن أرث عظمته أيضا . ولم يكن هناك مجال لتوسيع الامبراطورية . فقوّيت دعائمها ، وأدّبت متمرديها . ثم مارست العظمة فى البناء والتعمير ، وتوفير الرخاء الشعبى ، وتحديث التقاليد . فتزوجت فتاة من الشعب ، كانت خير شريك لى فى ملكى ، بما كانت عليه من فطنة وحكمة . وخلّفت ورائى عهدا سيظل رمزا للسعادة والرخاء .

فقالت الملكة حتشبسوت :

ـ سرتنى شهادتك للملكة ، واعترافك لها بالجدارة . فهى شهادة للمرأة ، وفيها ردّ بليغ على أعدائى .

فقال أمنحتب الثالث :

ـ تيى ملكة عظيمة .. بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء .

فقال أبنوم :

ـ ولكنك جازيتها أسوأ الجزاء ، بولعك النهم بالنساء ، وتعلقك الشديد بهن

فقال أمنحتب الثالث :

ـ لكل ملك حريمه . وتلك الأهواء العابرة ، لا تنال من مكانة الملكة العظيمة ..

ـ وتتزوج فى شيخوختك بنتا فى سن حفيدتك ؟

فقال الملك :

ـ أردت أن أوثق علاقة مصر بميتانى .

ففال أوزوريس :

ـ لا يجوز الكذب فى هذه القاعة المقدسة .

فقال أمنحتب الثالث بصوت المعتذر :

ـ الحق ، سمعت عن جمالها الفائق ، وكنت مجنونا بالجمال . ورغم الشيخوخة والمرض ، أفرطت فى الحب حتى قُضِى علىّ .

فسأله الحكيم بتاح حتب :

ـ أهذه قمة حكمة العمر ؟ .

فقال أمنحتب الثالث :

ـ ميتة الحب أفضل من ميتة المرض .

* * *

ودعا أوزوريس الملكة تيى للكلام ، فقالت :

ـ اختارنى الملك زوجة عن حب . وانجذبت إليه مبهورة بالحب ، وبأبهة الملك . وربط الحب بيننا حتى آخر العمر . وقد استشارنى مرة فى بعض شئون المُلْك ، فأرضاه رأيى غاية الرضى ، وقال لى « أنت ياتيى امرأة حكيمة بقدر ما أنت أنثى محبوبة » . ومن يومها ، لم يقرر أمرا حتى يستمع إلى رأيى ، وجعلنا نستقبل الوزراء والمسئولين معا ، وأشارك برأيى فى المسائل المطروحة على بساط البحث . واعترف كل مسئول فى المملكة بقدْرى وحكمتى . وجاء إلىّ الكهنة فى اضطراب ، إبّان الأزمة الدينية التى استفحل أمرها ، بسبب دعوة ابنى اخناتون . وقد بذلت أقصى جهدى لتجنب الكارثة ، ومنع الحرب الأهلية . أما عن ولع زوجى بالنساء ، فقد كان لكل فرعون حريمه ، ولم تستأثر زوجة بملك . بل لم أجد بأسا فى انتقاء الجميلات له ، حتى تصفو نفسه ، وينهض بمسئوليته على خير وجه ، وقهرت بقوة إرادتى غيرة المرأة الطبيعية عندى ، وأقنعت نفسى بأن الملكة ليست امرأة عادية ، بل إنها مسئولة عن مزاج زوجها ، كما أنها مسئولة عن سياسته .

فسألتها حتشبسوت :

ـ ألم تنهزم « الملكة » أمام « المرأة » .. ولو مرة ؟

فقالت تيى :

ـ لم أعرف الهزيمة إلا أمام ابنى ..

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ ولكن المرأة هى المرأة ..

فقالت تيى :

ـ ولكن تيى مثال وحدها ، وطراز .. لا يتكرر !

فقالت إيزيس :

ـ أثبتت هذه السيدة ، جدارة المرأة بالحكم أكثر من حتشبسوت نفسها . وكان زوجها ملكا عظيما . وهيهات أن ينقص من قدره ولعه بالنساء ولذة العيش . وقد تقلّب فى النعيم بعد أن يسّره لعامة شعبه . فتقلب معه فى النعيم . فليهنأ قلبى بهذا الابن وهذه الابنة .

فقال أوزوريس :

ـ إلى مجلسكما بين الخالدين .

٩

ونادى حورس :

ـ الملك اخناتون والملكة نفرتيتى .

فدخل رجل وسيم الوجه وامرأة جميلة . وتقدما فى كفنيهما حتى مثلا أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ ورثا العرش والحكم شريكين . فجرّ ثورة دينية ، فدعا إلى عبادة إله جديد واحد . وألغى الدين القديم وآلهته . وبشر بالحب والسلام والمساواة بين البشر . تعرضت البلاد فى الداخل للانحلال والفساد ، كما تعرضت الامبراطورية للتمزق والضياع ، ومضت الأوضاع إلى حافة الحرب الأهلية . فسقط الملك . وقضت ثورة مضادة على ثورته . ومحا المؤرخون والملوك عهده من التاريخ ، واعتبروه شر عهد انقض على حضارة مصر فأوشك أن يبيدها .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال أخناتون :

ـ منذ الصغر ، وأنا مواظب على ملء روحى بالمعرفة والحكمة الإلٰهية ، حتى هبط على قلبى وحى من السماء يحمل نور الإلٰه الواحد ، ويطالبنى بالدعوة إلى عبادة هذا الإلٰه الواحد . فكرّست حياتى لذلك . ثم لما وليت العرش كرسته لخدمة نفس الهدف . وسرعان ما قام صراع وحشى بين دعوتى النورانية .. وبين ظلمات الجهل ، والتقاليد ، وأطماع الكهنة ، والحكام المتعطشين إلى الجاه وإلى استعباد الفلاحين ورعايا الامبراطورية . ولم يتسلل الضعف أبدا إلى جهادى الروحى ، ولم أرض باستعمال العنف أو القهر ضد من عادونى . وذقت النصر أعواما ، فنشر الخير جناحيه . ولكن قويت المكائد والدسائس ، وزحفت جيوش الظلام حتى حاصرتنى من جميع الجهات ، فتهاويت وحلّت بى الهزيمة . ولكن ثقتى فى النصر النهائى لم تتزعزع أبدا . فلم يعرف ملك حياة أسمى من حياتى ، ولا ابتُلىَ بنهاية أتعس من نهايتى ..

وقالت الملكة نفرتيتى :

ـ صدق فيما قال يامولاى . لقد جاهدنا جهاد الأبطال ، حتى غلبتنا قوى الشر ، فتهدم البنيان المرتفع ، وتساقطت أركانه ..

وكان الوزير أمحتب ، أول المعلقين ، فقال :

لقد كنا نظن أن هناك قوة إلٰهية واحدة وراء آمون ورع وبتاح وسائر الآلهة . ولكنا لمسنا تعلق الناس بالرموز المجسدة لهذه القوة التى لا يرونها ، فيلتفّون حول هذه الرموز فى كل إقليم ، يستمدون منها القوة والعزاء . فتركنا الأمور تجرى على ما جرت عليه ، رحمة بالقلوب المؤمنة ، وحفظا لها من الضياع .

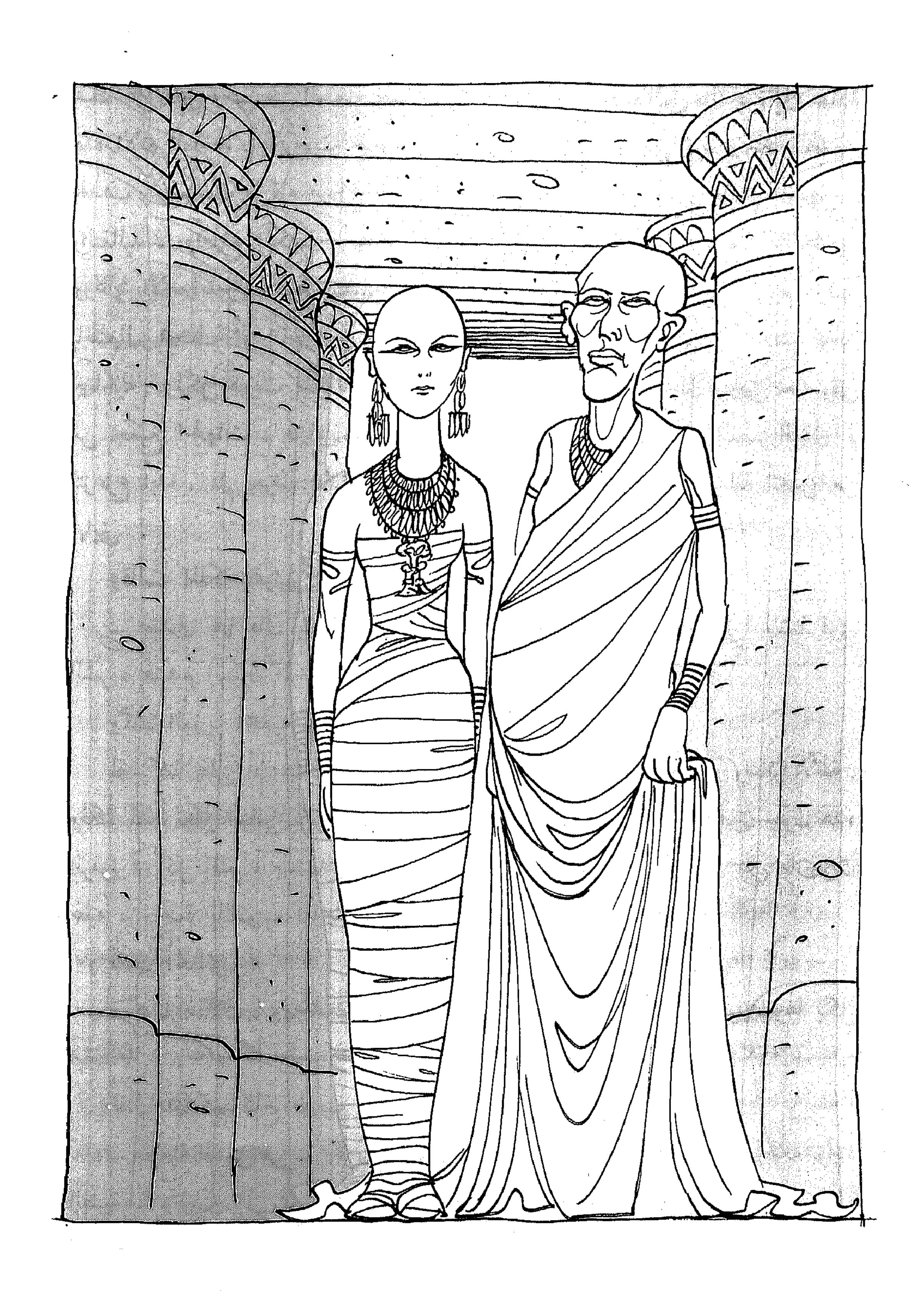
فقال أخناتون :

ـ هذا ضلال . ووجدت أنه آن للناس أن يعرفوا الحقيقة ، ويواجهوها بكل أبعادها .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ معاملة الناس فن ، وفن صعب أيها الملك . ومن لا يحسنه ، فقد تخذله نواياه الطيبة ، وتؤدى إلى غير ما يقصد .. فيقتل من يحب وهو يسعى لانقاذه .

فقال أخناتون :



ـ لولا ذوو الأغراض الخاصة ، لصلحت الأمور .
فسأله أبنوم :
ـ وماذا فعلت بذوى الأغراض ؟
ـ عاهدت نفسى منذ البداية على التعامل بالحسنى ، وعدم الإيذاء والقهر .
فصاح أبنوم :
ـ ليس للاشرار إلا العصا والسيف :
فقال اخناتون :
ـ آمنت بالحب أتعامل به مع العدو والصديق .
فقال أبنوم :
ـ لقد ضيّعت رسالتك بسذاجتك . ورجل الخير ليس إلا مقاتلا .
فقال تحتمس الثالث :
ـ لقد تركت لك أعظم امبراطورية عرفها التاريخ . فكيف ضاعت فى عهدك ، وتحت إمرتك جيش لا مثيل لقوته ؟ .
فقال أخناتون :
ـ كان مبدئى الحب والسلام ..
ـ زدنى شرحا من فضلك .
ـ كنت أدعو لإله واحد لجميع البشر . كلهم يتساوون تحت مظلته . وكنت أدعو إلى أن يحل الحب بين الناس محل السيف .
فقال تحتمس الثالث بغضب :
ـ طبيعى أن تضيع الامبراطورية ، نتيجة لهذا الأسلوب من التفكير . أنت لست إلا مجنونا ! .
فقال أوزوريس :
ـ لا أسمح بتجاوز حدود الأدب فى النقاش . اعتذر فقال تحتمس الثالث :
ـ معذرة . ولكنى أُسجل أسفى على ضياع عمرى هدرا .
وقال الملك مينا :
ـ لقد قامت وحدة مصر على السيف وعلى تلّ من الجماجم . وعلى نفس الأساس

كان يجب أن تقوم وحدة الامبراطورية .

فقال أخناتون :

ـ لا جدوى من مناقشتكم . فالمسألة بكل بساطة أننى سمعت صوت الإله . أما أنتم فلم تحل بكم هذه النعمة الإلهية .

وقالت الملكة نفرتيتى :

ـ كم كانت تطاردنا هذه الآراء من أعداء وأصدقاء . وقد حطمتنا الدنيا بجبروتها . ولكننا نقف اليوم بين يدى إله عادل .

ـ وعندئذ سألتها الملكة حتشبسوت :

ـ إذن ، لماذا هجرت زوجك فى قمة الأزمة ؟

فأجابت نفرتيتى :

ـ لم يداخلنى أبدا شك فيه . ولكننى توهمت أننى بهجره ، قد أنقذه من القتل .

وهنا قالت إيزيس :

ـ هذا الابن ، آمن برسالة أراد أن ينقذ بها البشر . ولكن لم يكن أحد مستعدا لفهمه أو التفاهم معه . فكانت المأساة . وسوف أظل فخورة به إلى الأبد .

وقال أوزوريس :

ـ اجلس أنت وزوجتك بين الخالدين .

١٠

ونادى حورس :

ـ الملك حورمحب .

فدخل رجل متوسط القامة ، متين البنيان ، صلب الملامح . وسار متلفعا فى كفنه ، حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ ولى العرش ، رغم عدم انتمائه إلى الأسرة المالكة . وتزوج من موت نجمت لكى يضفى الشرعية على ولايته ، بالرغم من تقدمها فى السن . وانبرى بقوة للقضاء

على الفوضى والفساد والتسيّب ، وإصلاح ما تخرب من معابد على عهد أخناتون . وبفضله استتب الأمن والنظام فى داخل البلاد ، أما الامبراطورية فقد أصبحت فى خبر كان .. باستثناء القليل .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ حقا ، لم أكن من الأسرة المالكة ، ولكنى أنتمى إلى أسرة عريقة من أسر الشمال . وقد نشأت نشأة عسكرية ، وأديت خدمات ناجحة فى عهد الملك أمنحتب الثالث . ولما ولى أخناتون العرش ، قربنى إليه ، ومنحنى الثقة ، ولكنه للأسف ، لم يأخذ برأيى فى وجوب معاقبة المفسدين فى الداخل ، وإرسال حملات لتأديب المتمردين فى أنحاء الامبراطورية . ولما بلغت الأزمة أشدها ، ولاحت فى الأفق نذر الحرب الأهلية ، تفاهمت مع كهنة آمون على التصفية النهائية لحكم أخناتون ، مفضّلا المصلحة العامة على عواطفى الشخصية . واتفق رأى الجميع على جدارتى بالعرش لمواجهة الفوضى الضاربة فى أنحاء البلاد . ولكن رُئى أن يُحترم القانون أولا . فتولى الملوك الثلاثة ، ساكرع وتوت عنخ آمون وآى . حكم الأول أربعة أعوام ، والثانى ستة أعوام ، والثالث أربعة أعوام . وعجزوا جميعا عن مواجهة الأزمة . واستمر الاضطراب والفساد فى عصورهم . وعقب وفاة آى ، قامت ثورة ونهبت المقابر . فلم أجد مفرا من تحمل المسئولية . وقد تزوجت من موت نجمت أخت نفرتيتى ، لأنها كانت من أوائل الذين كفروا باخناتون ، وانضمت إلى الكهنة لانقاذ البلاد .

ووجدت المهمة أمامى ثقيلة ومتشعبة . ولكن لم أكن أفتقد القوة أو العزيمة . فأخمدت الثورة ، ونظمت الجيش والشرطة والإدارة ، وراقبت الموظفين ، ولم أرحم منحرفا . ثم جددت المعابد ونظمت الأوقاف . وحميت الضعفاء من الأقوياء . ولو امتد بى العمر أكثر مما امتد ، لاستردت ما ضاع من امبراطورية العظيم تحتمس الثالث .

وتكلم الملك خوفو ، فقال :

ـ قمت بعمل مجيد أيها الملك .

فقال أبنوم :

ـ عمل مجيد حقا . ولا لوم عليك لعدم إرجاع السلطة إلى الشعب ، بما أنك من سلالة أسرة عريقة . وترجمتها الأمنية عندى ، أسرة عريقة فى النهب والسلب .

فقال أوزوريس :

ـ لا أوافق على هذا الأسلوب فى النقاش . اعتذر .

فقال أبنوم متجها :

ـ معذرة .

وقال تحتمس الثالث بأسف :

ـ كنت جديرا بارجاع الامبراطورية إلى مجدها الأول .

فقال حورمحب :

ـ كانت البلاد ممزقة ، وعلى حال من الفساد والفوضى تفوق الخيال .

وتكلم أخناتون فقال :

ـ لم أحب أحدا من أتباعى كما أحببتك ياحورمحب ، ولم أكرم أحدا منهم كما أكرمتك . وكان جزائى أن خنتنى ، وانضممت إلى أعداء الشعب وأعدائى . ثم هدمت مدينتى ومعبدى ، ومحوت اسمى ، وصببت علىّ اللعنات ..

فقال حورمحب :

ـ لا أنكر شيئا من جميع ما قلت . وقد أحببتك أكثر من أى رجل عرفته ، ولكننى أحببت مصر أكثر .

ـ وشاركت فى محو عبادة الواحد الأحد ، وإرجاع الآلهة الزائفة إلى عروشها ..

فقال حورمحب :

ـ لم يكن ، فى مقدرتى ، تجاهل ما تنبض به قلوب الملايين .

وهنا قالت له نفرتيتى :

ـ كنت تحبنى ياحورمحب . فلما تزوجت من أخناتون ، أضمرت له الحقد .

فقال حورمحب :

ـ أقول لك أيتها الملكة ، فى هذه القاعة التى لا يجوز فيها الكذب .. لم تشغل المرأة أبدا من قلبى إلا أتفه جزء فيه . معركتى معكم كانت معركة وطنية ، لا معركة غرامية !

وهنا قالت إيزيس :

ـ ابنى هذا ، أقوى من أن يحتاج إلى دفاع .

فقال أوزوريس :

ـ إلى مجلسك بين الخالدين .

١١

ونادى حورس :

ـ الملك رمسيس الثانى .

فدخل رجل طويل القامة ، رشيق القدِ تقدم فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ تولى المُلك عقب وفاة أبيه . وطّد نفوذ مصر فى النوبة وآسيا . حارب الحيثيين ثم عقد معهم معاهدة سلام . ثم كرّس حياته المديدة للبناء بصورة لم تعرفها البلاد من قبل . وكان عصره عصر تعمير وازدهار للفن والأدب والرخاء . وقد طال عمره حتى قارب المائة . واستمتع بالحياة طولا وعرضا . وأنجب من الأبناء ما يقارب الثلاثمائة .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال :

ـ الحق ، أننى اغتصبت العرش من أخى ولىّ العهد . لاعتقادى بأن الوقت يتطلّب ما أوتيته من قوة ، وأن ضعف أخى سيكون كارثة على البلاد لو ولى العرش . وكنت طموحا مقداما . فصممت على أن أوفّر لوطنى فى الداخل أقصى درجات الأمان والنظام والعدل والرفاهية ، وأن أرجع الامبراطورية لسابق عهدها المجيد . فوطدت نفوذى فى الجنوب ، ثم تقدمت إلى فلسطين وسوريا ولبنان ، وأسرع إلىّ الحكام والأمراء يقدمون فروض الطاعة . ثم توجهت بجيوشى إلى قادش ، لأنزل الضربة القاضية بعدوى القوى ، ملك الحيثيين . وأوقعنى سوء الحظ فيما يشبه الحصار . فأحاط بى العدو ، وبقية جيشى بعيدة عنى . وثار بى الغضب ، وخفت على كرامة مصر التى باتت أمانة بين يدىّ ، وصليت إلى إلٰهى طويلا . ثم هجمت

على العدو ، وحولى شرذمة من الحرس ، وانقضضت على جموعه كالصاعقة ، فتزلزلت قلوبهم ، وتوالت مصارعهم تحت ضرباتى ، فشققت بينهم ثغرة نفذت منها إلى جيشى . ثم كررنا عليهم ، فسحقناهم سحقا حتى رموا بأنفسهم فى مياه النهر . وتم لنا النصر . وحاصرت قادش . فاقترح ملكها معاهدة صلح وسلام ، لم أجد بأسًا بها ، خاصة بعد أن استرددت الامبراطورية عدا أجزاء لا يعتدّ بها . ثم رأيت أن أكرس حياتى للبناء . فتزوجت من ابنة ملك الحيثيين دعما للسلام . ورفعت من الأبنية ما لم يرفعه فرعون قبلى . وهيأت من السعادة لأهل مصر ، ما لم يعهدوه من قبل ، ولا أحسب أنهم عرفوه من بعد .

وكان أول المتكلمين سيتى الأول (سبق أن جاء فى دوره ، وحُكِم له بأخذ مجلسه مع الخالدين) فقال :

ـ ولكنك بدأت حياتك باغتصاب حق أخيك ولى العهد الشرعى .

فقال رمسيس الثانى :

ـ لا أحترم قانونا يورّث عرشا لعاجز لا يستحقه .

فسأله تحتمس الثالث :

ـ كيف يرضى قائد مظفّر بأن يعقد معاهدة سلام مع عدوه ، ثم يتزوج من ابنته ؟ .

ـ هو الذى طلبها .. ووجدتها مفيدة للطرفين .

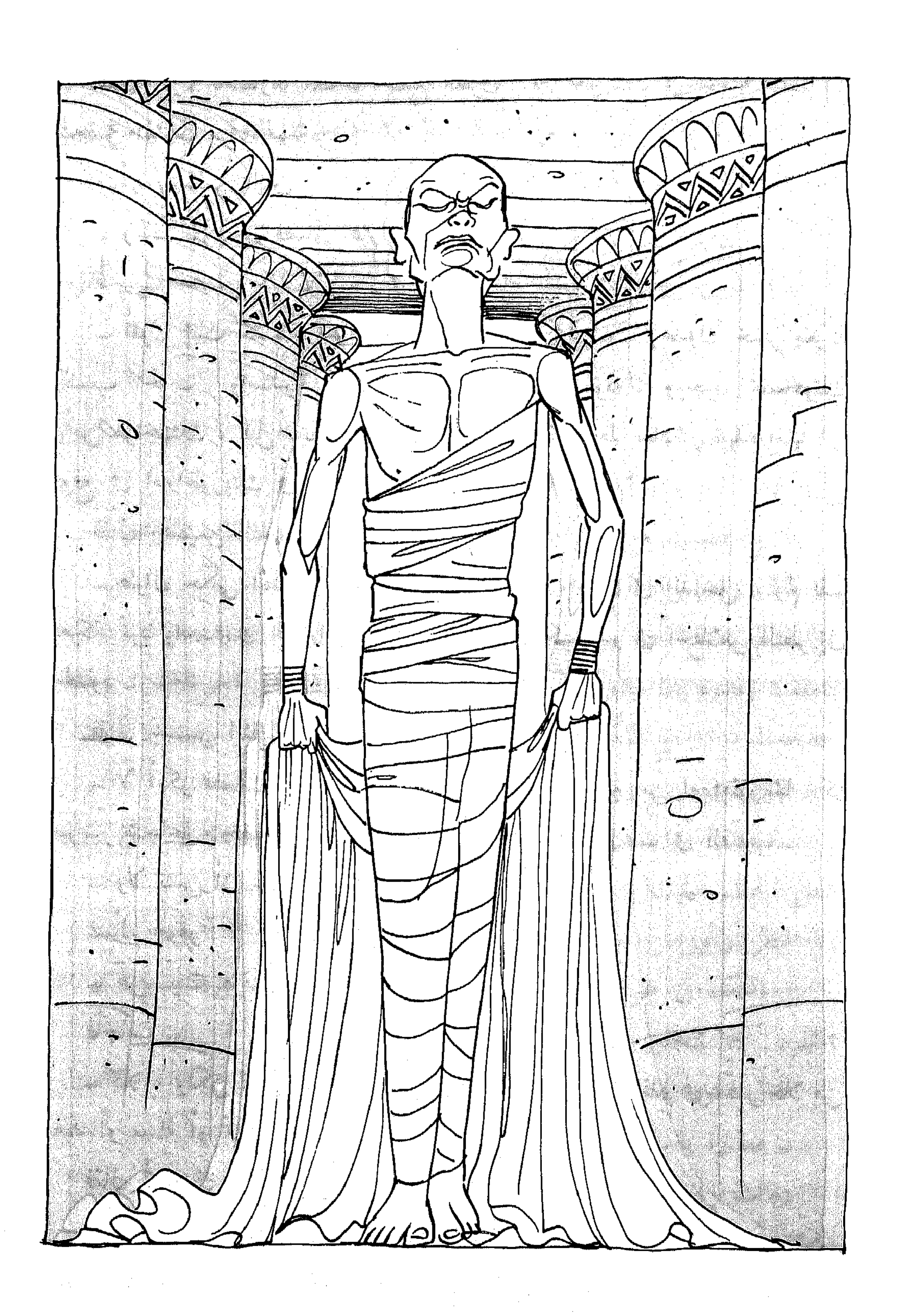
ـ كيف وقعت فى الحصار أيها الملك ؟

ـ وقع فى يدنا جاسوسان للعدو ، اعترفا كذبا بأن العدو مرابط شمال قادش . فأسرعت بالفرقة الأولى لأحتل جنوب قادش ، ولكن العدو كان كامنا فى الشرق ، فاخترق مؤخرة الجيش وضرب حصاره

ـ لقد تسرعت ، وكان يجب انتظار جيشك القادم من الجنوب . أنت شجاع ما فى ذلك شك ، ولكنك قائد غير محنك .

ـ لقد حطمت الحصار ، ثم كررْت على العدو ببقية جيشى ، فوقع فى المصيدة التى نصبها لى ، فمزقته شر ممزق ، وأحرزت نصرا حاسما .

فقال تحتمس الثالث مواصلا مناقشته :



ـ لم يكن هدفك كسب معركة . ولكن واضح أنك أردت الاستيلاء على قادش كما فعلت أنا ، باعتبارها مفتاحا لجميع الطرق . فلا حق لك فى ادعاء النصر إلا بتحقيق الهدف من الحملة .

فسأله رمسيس الثانى :

ـ وماذا تقول فى قضائى على جيش العدو ؟

فأجاب تحتمس الثالث :

ـ أقول إنك كسبت معركة ولكنك خسرت الحرب . وعدوك خسر معركة وكسب الحرب . واستدرجك إلى السلام ، لينظّم صفوفه ، ورحب بمصاهرتك ليأمن مواجهتك ، قبل أن يعوض خسائره . وقنع بالاحتفاظ بقادش ليهدد منها أى موقع فى امبراطوريتك فى المستقبل .

فقال رمسيس الثانى :

ـ طوال حكمى الطويل ، لم يختل الأمن ساعة واحدة فى الداخل ، ولم تقم معركة تمرد واحدة فى الامبراطورية المترامية ، أو يفكر عدو فى اختلاس النظر إلى الحدود .

فقال تحتمس الثالث :

ـ لا أنكر فضلك . لقد أعدت إلى مصر الجزء الأكبر من امبراطوريتها . كما تميزت بشجاعة شخصية فائقة ، كانت قديرة على إلقاء الرعب فى القلوب .

ـ ولا تنس أن عصرى كان عصر التعمير الأعظم .

فسأله خوفو :

ـ هل بنيت هرما ؟

فأجاب :

ـ كلا ، ولكن ليس بالهرم وحده يعمّر الإنسان . وما من إقليم فى مصر خلا من معبد أو مسلة أو تمثال لى .

فقال أخناتون :

ـ استوليت على أعمدة معبدى المهدم ، وشيدت بها معبدك الجنائزى . وتكرّر سطوك على آثار السابقين . كما حفرت اسمك على آثار غيرك بغير حق . وقلّلت من

شأن كل عظيم سبقك ، كأن الآلهة لم تخلق سواك .

فقال رمسيس الثانى :

ـ فى هذه القاعة المقدسة ، لا أنكر خطأ ولا أدافع عن نزوة . ولكن دع غيرك يوجه إلىّ الاتهام ، ويكون مبرءا من الكفر .

فقال أوزوريس :

ـ لا تنس أيها الملك أنك تخاطب رجلا تمت محاكمته ، واستحق الخلود . اعتذر .

فتمتم رمسيس الثانى بهدوء :

ـ معذرة .

وعند ذلك ، سألته الملكة حتشبسوت :

ـ وما قصتك مع النساء ؟ وهل وجدت وقتا لملاطفة أبنائك الثلاثمائة ؟

فقال رمسيس الثانى :

ـ لم يتمتع أحد بالسعادة كما تمتعت . وهبتنى الآلهة عمرا مديدا ، وصحة كاملة ، وقدرة بلا حدود على الحب . ولم تضعف قوتى حتى آخر العمر ، رغم ما خصصت به زوجتى الملكة نفرتارى من احترام ومودة . أما أبنائى فما عرفت إلا أقلهم !

فقال ابنوم :

ـ حياتك أيها الملك جامعة بين الجدية بكل معانيها ، وبين العبث بكل نزواته . فلعل الحكم عليك يجمع بين الانصاف والردع !

فنظر أوزوريس نحو أبنوم وقال :

ـ المحكمة فى غنى عن إرشادك . وأراك تحن إلى إشعال ثورة جديدة فى عالم الخلود . فلا تتجاوز حدودك واعتذر .

فقال أبنوم :

ـ معذرة ياسيدى العظيم .

وقالت إيزيس قاصدة رمسيس الثانى :

ـ أعاد هذا الابن مصر إلى سابق مجدها . وعم الرخاء فى عهده الجميع : القصور والبيوت والأكواخ . وإذا قسنا هفواته بطول عمره ، ظهرت تافهة .

وقال أوزوريس :

ـ اذهب إلى كرسيك بين الخالدين .

١٢

ونادى حورس :

ـ الملك امنمس والملك سبتاح والملك سيتى .

فدخل الثلاثة . وتقدموا فى أكفانهم حتى مثلوا أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ شُغلوا بمنازعاتهم على العرش . فساد الفساد والانتهازية .

وتمزقت وحدة البلاد . وانتشر القتل والسلب والنهب .

ودعاهم أوزوريس إلى الكلام فقال أمنمس :

ـ كنت الأحق بالعرش . ولكنه أغتصب منى . وشُغلت عن واجبات الحكم بمطاردة الدسائس ، حتى اضطررت للتخلى عن العرش .

وقال سيتى :

ـ كنت أملك من القوة ما أستطيع به أن أحكم حكما طيبا . ولكن الفساد كان قد استشرى فاجتاحنا الانحلال .

فقال الحكيم أمحتب وزير الملك زوسر :

ـ ما أسرع أن يحل الفساد محل المجد ، وأن ينعكس ضعف حاكم واحد على حضارة متكاملة .

فقال تحتمس الثالث :

ـ لعل المشكلة تتلخص فى كيف تعثر على الرجل القوى المناسب فى الوقت المناسب .

فقال حور محب :

ـ لم يكن فى الأسرة المالكة رجل قوى كفء ، ولكن هل خلت البلاد من ذلك الرجل ؟

فقالت إيزيس :

ـ قضى القانون ، بأن يرشَّح الموجود . والبحث عن المطلوب يتطلب قدرة وعناء . ولم يكن فى وسع هؤلاء أن يفعلوا خيرا مما فعلوا .

فقال أوزوريس :

ـ اذهبوا إلى مقام التافهين .

١٣

ونادى حورس :

ـ الملك رمسيس الثالث .

فدخل رجل طويل القامة يبدو عملاقا . ومضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ انتصر على الأعداء فى آسيا والغرب والوافدين من البحر ، ونشر الأمن والأمان فى البلاد .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ نتيجة للمعاناة فى الداخل ، تمرد الأمراء فى آسيا ، وطمع الليبيون فى الغزو ، ثم دهمنا من بحر الشمال أقوام بنسائهم وأطفالهم يريدون الاستيطان . وفى الحال نهضت للقتال دون هوادة . فطردت الليبيين ، وقضيت على الشماليين وأسرت نساءهم وأطفالهم . ثم قدت حملة إلى آسيا ، ففتكت بالعصاة دون رحمة . وحظيت البلاد فى عهدى بالأمان والاستقرار . فشيدت العديد من القصور والمعابد . ومن سوء الحظ ، أننى تعرضت فى شيخوختى إلى مؤامرة فى الحريم لاغتصاب العرش . ونجوت من الموت بأعجوبة . ثم شكلت محكمة عليا لمحاكمة المذنبين . وأمرت بالعدل ، بحيث لا ينجو مجرم ، ولا يؤخذ برىء . ومن المؤسف أن قاضيين سقطا ، باغراء بعض نساء الحريم ، ولما انكشف أمرهما انتحرا .

فقال تحتمس الثالث :

ـ مواقعك تشهد لك بأنك من القواد الأفذاذ . .

فقال رمسيس الثالث :

ـ لقد ترسمت خطاك فى غزوتى الآسيوية .

فقال أخناتون :

ـ إن معاملتك للمتآمرين عليك ، وتقديمهم للمحكمة بدلا من أن تبطش بهم ، وطلبك من المحكمة تحرى العدل وحده .. كل ذلك يقطع بتقديسك للقانون ، وشغفك بمكارم الأخلاق ، كأنما كنت من عباد الإله الواحد .

فقال رمسيس الثالث :

ـ كنت من عباد مكارم الأخلاق .

فقال بتاح حتب :

ـ إنه كيد النساء ، كاد يفتك بملك عظيم ، وأهلك قاضيين ..

فقالت الملكة نفرتيتى :

ـ لقد خلق الإله الواحد النساء ، ليكشفن معادن الرجال .. الثمين منها والخسيس !

فقالت إيزيس :

ـ تحية لهذا الابن الجامع بين العظمة والنبل .

فقال أوزوريس :

ـ إذهب إلى مجلسك بين الخالدين .

١٤

ونادى حورس :

ـ الملك أمازيس .

فدخل رجل طويل نحيل ، مضى فى طريقه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة .

ـ وطّد النظام فى الداخل ، وغالى فى اعتماده على اليونانيين ، وشغف بالولائم والعربدة . وفى عهده ظهرت دولة الفرس ، فسعى إلى إقامة حلف من مصر

وبابل[1] واليونان لصدها ، ولكنها اجتاحت بابل .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ اعتبرت الملك إبريس[2] مسئولاً عن هزيمته أمام بابل ، وقدرت أنه أضعف من أن يواجه الموقف المعقد ، فخرجت عن طاعته ، واستوليت على العرش . وقد أقمت حلفًا لصد الفرس ، ولكن الفرس اجتاحت أقوى جناح فيه ، فتفرغت للإصلاح فى الداخل .

فسألته الملكة حتشبسوت :

ـ ماذا فعلت للداخل ؟

فأجاب أمازيس :

ـ عم البلاد رخاء ملحوظ . وأصلحت القانون المدنى . وحسبى أن أذكر المادة التى ألزمت كل غنى أن يبيّن لرئيس مدينته مصادر ثروته .

فسأله تحتمس الثالث :

ـ ماذا فعلت لاعداد قومك لمواجهة الطامعين الجدد ؟

ـ لم يعد قومى يبالون إلا بالفلاحة وحياتهم الخاصة .

فقال له رمسيس الثانى :

ـ وكنت قدوتهم فى ذلك ، بشغفك بالولائم والعربدة . ولست ضد الولائم والعربدة إذا كانت فى إطار العظمة !

فقالت إيزيس :

ـ إصلاحاته لا يستهان بها . وكانت له خطة حكيمة لولا الفشل .

وتفكر أوزوريس قليلاً ، ثم قال :

ـ تمكث فى مقام التافهين ألف سنة ، ثم تنتقل إلى الجنة فى درجة متواضعة تناسبك .

(١) مدينة ذات حضارة قديمة تقع على نهر الفرات بالعراق .

(٢) الملك أبريس سبق الملك أماريس فى المحاكمة . فحكم عليه بالمقام بين التافهين

١٥

ونادى حورس :

ـ بسماتيك الثالث .

فدخل رجل متوسط القامة ، قوى البنية ـ سار فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ حكم ثلاثة أشهر ، ثم تصدى بجيشه للدفاع عن مصر أمام جيش قمبيز ملك الفرس ، وانهزم جيشه ، ووقع فى الأسر ، وقتله قمبيز ، واستولى على مصر .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ توليت العرش ، والجيوش الفارسية تتوغل فى آسيا ، وتتجه نحو مصر . فاستعددت بقواتى اليونانية ، وجنّدت ، على عجل ، جيشاً صغيراً من المصريين . ولاقيت العدو فى معركة حامية .

فدارت الدائرة علينا ، ووقعت فى الأسر . وقد أراد قمبيز أن أتولى العرش بوصفى تابعًا له . ولكنى رفضت ، وعملت فى الخفاء على مقاومة الغزاة . فانكشف أمرى ، ودفعت حياتى ثمنًا لذلك .

وتكلم تحتمس الثالث ، فقال :

ـ حدثنى عن مقاومة كل من اليونانيين والمصريين فى المعركة .

فقال بسماتيك الثالث :

ـ لاشك ، كانت مقاومة المصريين أشد بدرجة لا تقاس .

فقال تحتمس الثالث :

ـ توقعت أن أسمع ذلك . وربما لو كان جيشك كله مصريًا ، لتغيّر مصير المعركة ـ ولكنكم أهملتم شعبكم ، واعتمدتم كل الاعتماد على الأجانب ، بعد أن بدأ أسلافك فى الاستعانة بالجنود المرتزقة من الأجانب . وبذلك انتهى تاريخ مصر المستقلة على يدكم .

فقال سيكننرع (وكان قد جاء فى دوره من قبل ، وحكم له بالجلوس مع الخالدين) :

ـ لا يجوز أن ننسى أنه رفض العرش فى ظل الحكم الأجنبى . وضحى بنفسه فى سبيل ذلك ـ وشاركنى نفس المصير .

فقالت إيزيس :

ـ أمامكم ابن سيئ الحظ ، حارب بشجاعة ؛ ولو كان هدفه أن يحكم بأى ثمن ، لظل فى الحكم ، ولكنه قتل عزيزًا شريفًا .

وقال أوزوريس :

ـ خذ مجلسك بين الخالدين .

١٦

وقال أوزوريس :

ـ أيها السادة ..

لقد انتهت مصر الفرعونية .. فانتهى اختصاص هذه المحكمة المقدسة .

فليس من اختصاصها محاكمة الحكام الأجانب ، الذين حكموا مصر بعد ذلك . وهى تعتبرهم جميعًا ملعونين ، وإن اختلفت درجة اللعنة بين حاكم مصلح وحاكم مفسد .

ولكنها ستواصل محاسبة المصريين ، الذين كان لهم دور فى تاريخ مصر بعد ذلك . ونقصد بالمصريين ، من كانت مصريتهم بالوراثة ، ومن اكتسبوها بالإقامة والقلب والروح .

ولأن المصريين دخلوا فى دين جديد ، فاعتنقوا المسيحية ثم الإسلام .. فسيكون حكمنا ـ بالنسبة لمن نحاسبهم ـ حكمًا غير نهائى . بل سيكون نوعًا من التقدير التاريخى ، نرجو أن يوضع فى الاعتبار عند حسابهم فى الآخرة حسب دينهم .

والآن أترك الكلمة لتحوت كاتب الآلهة .

فقرأ تحوت كاتب الآلهة :

* انتهت مصر الآلهة ، والأهرامات ، والمعابد ، والضمائر المنيرة .

* وأصبح الفرس ملوكًا على العرش الذهبى . ولكنهم عبدوا آلهتنا ، وتمسحوا

بتقاليدنا ، ورغم ذلك فإن المصريين مقتوهم مقتًا ، ثاروا وتحرروا ، وهُزموا واستُعبدوا .

* وجاءنا الاسكندر الأكبر غازيًا ومحررًا من استعباد الفرس .

* ثم ورث مصر أحد قواده ، بطليموس . فأنشأ لأسرته البطالمة دولة وحضارة . واستأثر الأجانب بالنشاط الجوهرى . بينما عاش المصريون فى الظل ، يفلحون الأرض ، ويقنعون بالدرجة الدنيا ، باستثناء الكهنة ، الذين بقيت لهم الشئون الدينية .

وقد انفجرت حركات مقاومة فى صورة هجرات جماعية أو إضرابات .

وكانت تقابل بالعنف والشدة .

فقامت ثورات ، ولكنها أخمدت بقسوة ، وأُريقت دماء غزيرة .

* وانتهى حكم أسرة البطالمة فى عهد الملكة كليوباطرة التى ولدت فى الاسكندرية ونشأت بها .

* ودخلت مصر تحت حكم أجنبى جديد ، هو الحكم الرومانى .

فاعتُبرت «مزرعة» لامداد روما بالغلال .

وازداد وضع المصريين سوءًا . وكلما ثاروا ، أخمدت ثورتهم ، وسفكت دماؤهم .

* وفى عهد الحاكم الرومانى نيرون ، تسرّبت المسيحية إلى مصر . فأقبل فريق من المصريين يغيرون دينهم إليها ـ وغلب الزهد على معتنقى الدين الجديد . فاعتصم كثيرون منهم بكهوف الصحراء فرارًا من ظلم الحكام وفساد الدنيا .

وقد قاومت الحكومة الرومانية الدين الجديد ، وانهالت بحرابها على معتنقيه ، حتى عرف عصر الامبراطور دقلديانوس بعصر الشهداء .

وفى عصر تيودوسيس ، حتم الامبراطور اعتناق المسيحية على رعاياه . فكان للديانة المصرية القديمة شهداؤها كذلك . ولكن أغلبية المصريين اعتنقت المسيحية . إلا أنهم استقلوا فيها بمذهب خاص بهم .

وامتزجت الروح الدينية بالروح الوطنية ، وعملا معًا على الثورة على حكم الرومان ، والاستقلال عنهم . فتعرضوا لمذابح وعذابات لا حصر لها . واتخذ الصراع

صورة معركة دينية بين الكنيسة المصرية وكنيسة الدولة الرومانية . واستمر النزاع مصحوبًا بأشد أنواع الاضطهاد من الرومان للمصريين !

* * *

وصاحب كلام تحوت ، صمت ثقيل .. وظل بعده لفترة .. إلى أن أشار أوزوريس إلى حورس ، فصاح حورس :

ـ المقوقس حاكم مصر.

فدخل رجل بدين ، مائل إلى القصر ، ومضى متلفعًا فى كفنه حتى وقف أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ حاكم مصر باسم الإمبراطور الرومانى . اعتبره الأقباط مصريًا . وفى عهده فتح العرب مصر. وقد اتفق مع العرب ليتخلص من الرومان . وبذلك دخلت مصر فى عهد جديد تحت حكم العرب .

فدعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ ولأنى الإمبراطور الرومانى حكم مصر. ورغم أصلى اليونانى ، فقد اعتنقت المذهب اليعقوبى المصرى . فرضى عنى الأقباط ، واعتبرونى واحدًا منهم . وقد رأيت الاتفاق مع العرب ، تخلصًا من الرومان . وحصلت بذلك على شروط حسنة .

فسأله أبنوم :

ـ كيف أمِنْت للاتفاق مع الغزاة ؟

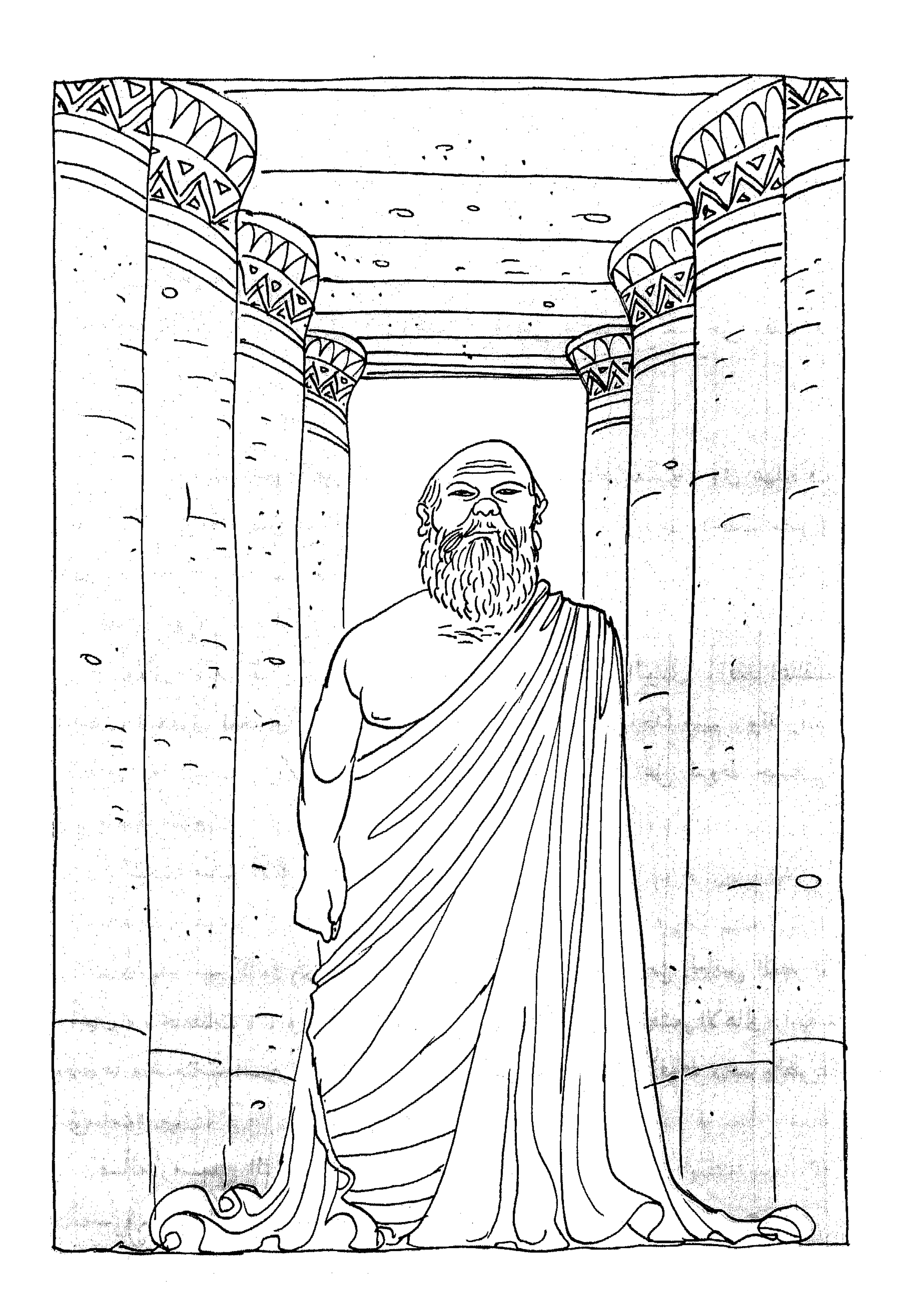
فأجاب المقوقس :

ـ أشهد أنهم كانوا غزاة شرفاء . وقد قسّم قائدهم عمرو بن العاص القطر إلى «أعمال » «محافظات » ، وضع على رأس كل منها حاكمًا قبطيًا . فشعر الأهالى براحة لم يعرفوها منذ مئات السنين . وحرّر العبادة من كل قيد ، فعبد الأقباط ربهم بالطريقة التى آمنوا بها ..

فسأله رمسيس الثانى :

ـ ولِمَ جشّموا أنفسهم مشقة الغزو إذن ؟

فقال المقوقس :



ـ كان هدفهم الأساسى ، فيما بدا لنا ، الدعوة إلى دين جديد بشّروا به ، يدعى الإسلام .

فقال أبنوم :

ـ واستقبلت مصر عهد شهداء من جديد ؟

فقال المقوقس :

ـ أبدًا .. لقد كانوا يدعون إلى دينهم بغير إكراه .. ومن يشأ الثبات على دينه ، يدفع الجزية .

فسأله خوفو :

ـ وما وجه الخلاف بين هذا الدين ، وديننا القديم ؟

ـ كانوا يؤكدون على وحدانية الإله .

فصاح اخناتون :

ـ هذا دينى وهذا إلهى .. طالما آمنت بأننى سأنتصر فى النهاية .

فقال أبنوم :

ـ حدثنى عما أفاده الفلاحون الكادحون ؟

ـ لقد ألغى عمرو بن العاص كثيرًا من الضرائب التعسفية . فتحسنت أحوال الفقراء .

فقال إيزيس :

ـ عادت سياسة هذا الرجل على أبنائى بخير غير منكور .

فقال أوزوريس :

ـ يمنح شهادة تزكية ، لعلها تنفعه فى حسابه فى الآخرة .

١٧

ونادى حورس :

ـ البطريرك بنيامين .

ـ ودخل رجل نحيل متوسط القامة . وتقدّم حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ بطريرك الأقباط . حمله الاضطهاد الرومانى على الانعزال فى الصحراء . أفرج عنه عمرو بن العاص ، بعد أن طرد الرومان من مصر ، وأعلن حرية العبادة فيها .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ العقيدة هى شرف الإنسان ، وهى كرامته وعزته ، وهى طريقه إلى الله . وقد تحملت ما تحملت من اضطهاد الرومان ، فلم أتزعزع عن عقيدتى . ثم آويت إلى الدير ، محتجًا على السقوط البشرى فى هاوية الظلم والفساد . وقضى الله أن تقع مصر فى أيدى بنى إسماعيل ، العرب المسلمين . فهيأوا للناس حرية العبادة . فرجعت مطمئنًا إلى كرسى البابوية بالإسكندرية ، ومارست الزعامة الروحية للأقباط .

فقال تحتمس الثالث :

ـ أصبح غاية ما يرتجيه المصرى ، أن يفوز بغاز أجنبى عادل .

فقال البطريرك بنيامين :

ـ لقد مضى على شعبنا زهاء ألف عام ، وهو قابع فى قراه ، وخاضع لأسرات أجنبية تحكمه بقوة السلاح ، فسأله أبنوم :

ـ ألم تستغل سلطتك الروحية لايقاظ الشعب ؟

فقال البطريرك :

ـ لماذا ؟ وقد أتاح لنا هذا الحاكم الجديد حرية العقيدة ، وخفّف الأعباء عن الفقراء ، ولم يحاول إكراهنا على اعتناق دينه ؟

فقالت إيزيس :

ـ لا لوم على الرجل

فقال أوزوريس :

ـ ليس لدى محكمتنا ما تؤاخذك عليه .

١٨

ونادى حورس :

ـ الحاج أحمد المنياوى .

فدخل رجل طويل القامة ، قوى البنيان . وتقدم حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ فى الأصل من أسرة ميخائيل المنياوى . هدانى الله إلى الإسلام ، فأسلمت . وتعلمت اللغة العربية . وحفظت القرآن الكريم . واشتغلت بالتدريس . ثم مكننى الله من أداء فريضة الحج .

وفى أيامى ، تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وكان من الخلفاء الراشدين ، حيث كان مثل خلفاء المسلمين الأوائل ، شكا إليه الأقباط أسامة بن يزيد ، فأمر بعزله ، ثم قَبِض عليه ، وسيق إلى الخليفة «مكبّلا» .. فمات فى الطريق . وتولى مكانه أيوب بن شرحبيل ، وكان ورعًا ، فعوّض الأقباط عما وقع بهم من ظلم .

وسأله اخناتون .

ـ لماذا اعتنقت الإسلام ؟

ـ الإيمان ينفجر فى القلب دون مقدمات .

فقال أخناتون :

ـ صدقت ، ولن يصدقك مثل خبير. ولكن ألم تكن لأناشيدى دخل فى ذلك ؟

فقال أوزوريس :

ـ إسمك لم يُعرف إلا بعد أيامه بألف عام .

فقال الملك خوفو مخاطبًا أحمد :

ـ لعلك أسلمت لتتخلص من دفع الجزية .

فقال أحمد :

ـ أبدًا .. بل هو الدين الجديد آمنًا به دون إكراه .. والجزية لم تكن هى السبب . وقد كانت خفيفة بل حدث أن قائد الجيش حيان بن شريح ظل يطلب

الجزية من الذين دخلوا فى الإسلام . ولما بلغ الخليفة ذلك ، أمره برفعها ، كما أمر بضربه عشرين سوطًا ، وقال له : إن الله بعث محمدًا هاديًا ، ولم يبعثه جابيًا [أى جامعًا لجزية] .

فقال أوزوريس :

ـ ليصحبك التوفيق أمام محكمتك الإسلامية .

١٩

ونادى حوس :

ـ موسى كاتب سر أحمد بن طولون .

فدخل رجل مديد القامة ، مضى حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ قبطى مسيحى . وهبنى الرب علمًا ودراية . فاختارنى الوالى أحمد بن طولون كاتبًا لسرّه . ولم يكن عربيًا . وقد آلت إليه الأمور فى مصر فى عهد الخليفة المعتمد بن المتوكل . فعمل على تثبيت ولايته . وكأن مصر قد عاد إليها استقلالها . بل إنه ضم لحكمه سوريا وأجزاء من آسيا الصغرى . وعكف على الإصلاح والبناء والبر وإقامة العدل وانتشرت مظلته فوق المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء . فلهجت الألسنة بالثناء عليه . وكان يجلس يومين ، من كل أسبوع ، يستمع للمظالم من عامة الناس ، كما كان يفعل الخلفاء الراشدون ـ لذلك عندما اشتد عليه المرض ، خرج الجميع يدعون له فوق جبل المقطم ، المسلمون بقرآنهم ، والمسيحيون بانجيلهم ، واليهود بتوراتهم .

فسأله الحكيم تباح حتب :

ـ هل انتفع الأقباط المسيحيون بمنزلتك عند الوالى ؟

فأجاب موسى :

ـ لقد كان اختياره لى دليلاً على ايمانه بالمساواة بين الطوائف . وآمنت مثله بالمساواة . وحتى عندما رشحت له المهندسين المسيحيين لبناء الحصون والمساجد ،

كنت أتحرى الدقة بلا تحيّز. والحاكم العادل ، يستخرج من معاونيه خير ما عندهم ، فى كل ما هو قدوة لهم فيه .

وسأله الحكيم أمحتب وزير زوسر :

ــ وكيف كانت العلاقات بين الطوائف ؟

ــ على خير ما يكون. وكما لابد لها أن تكون فى ظل حاكم عادل . فى عهده أصبحت مصر شعبًا واحدًا ذا أديان ثلاثة . وكان الإسلام قد أخذ ينتشر ، ويكثر عدد معتنقيه .

واستأذن تحوت كاتب الآلهة فى توجيه سؤال ، وقال :

ــ لماذا سَجَن البطريرك ميخائيل ، بطريرك كنيسة الاسكندرية ؟

فأجاب موسى :

ــ لم يكن الذنب ذنبه ، ولكنها كانت دسيسة من أسقف حقود يدعى سكا ، زعم لابن طولون أن البطريرك يدخر ثروة طائلة ، ليس بحاجة إليها ، فطالبه ابن طولون بالتبرع بشىء من ثروته للمساهمة فى تجهيز جيش مصر ، للتصدى لجيوش أجنبية كانت تتربص بمصر على الحدود. وكان ابن ولون يتحفّز لدفعها . فاعتذر البطريرك بعدم استطاعته . فسجنه ابن طولون بتهمة الخيانة ،

ولما تولى ابنه خمارويه ، بعد وفاته ، أطلق سراح البَطريرك ، وأرجعه مكرّمًا ، بعد أن تبيّن له وجه الحقيقة .

فقال أوزوريس :

ــ عرضت صفحة مشرقة ، فلتصحبك السلامة .

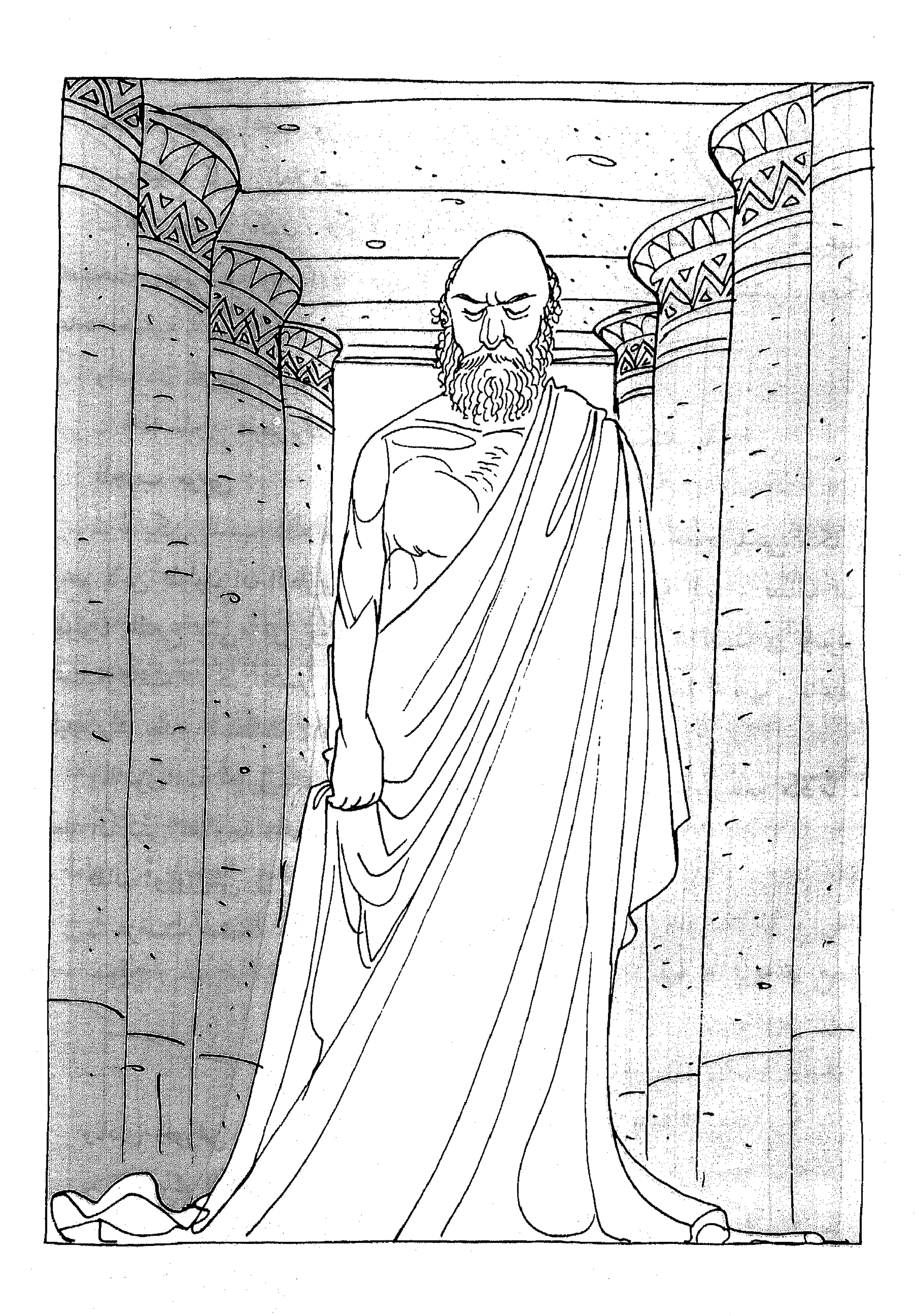
٢٠

ونادى حورس :

ــ على بك الكبير

فدخل رجل ذو طول وقوة . ومضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقال أوزوريس :



ـ إنك أول حاكم أجنبي ، نستدعيه إلى محكمتنا . فقد كانت سياستك ذات مصرية خالصة ، لم تظهر من قبل . وها أنا أدعوك إلى الكلام .

فقال على بك الكبير :

ـ كنت فى الأصل من مماليك إبرهيم كخيا . فميّزنى لشجاعتى . فصرت أحد وات المعدودين . ثم رقيت شيخًا للبلد (ما يعادل رئيس الوزراء الآن) . وعند ، فكرت بالاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية التى كانت مصر تابعة لها . وتمّ لى ردت . وسرعان ما خففت الضرائب ، وأقمت العدل ، ونفذت حكم الإسلام نة ، فينعم بالسلام والأمان أهل مصر ، مسلمين ومسيحيين ويهودًا . ومددت لمانى حتى العربية والشام والنوبة .

ولولا خيانة أبى الذهب ـ أحد مماليكى المقربين ـ لكان لمصر مصير غير المصير . ومت كريمًا ، كما عشت كريمًا .

وتكلم أخناتون ، فسأله :

ـ ألا يعتبر استقلالك بمصر ، تمزيقًا لوحدة الإسلام دين الإله الواحد ؟

فقال على بك الكبير :

ـ كان العثمانيون يمارسون الظلم والفساد ، تحت شعار إسلام زائف . وهالنى ما ، أهل مصر من عذاب . فوجدت أن السبيل الأوحد لاسعادهم فى ظل إسلام يقى ، هو التحرر من العثمانيين .

فقال تحتمس الثالث :

ـ وبدأت مشكورًا فى استرداد بعض امبراطوريتى .

وقال امنمحعت الأول (وكان ممن جاءوا فى دورهم من قبل ، وحكم له لجلوس بين الخالدين) :

ـ لم تنتفع بوصيتى التى دونتها عقب مؤامرة دبرت فى قصرى ، بيد أقرب مربين لى ، وكدت أهلك ضحية لها !

فقال على بك الكبير :

ـ الحق أنى لم أسمع عنها . وقد كان لى فى كتاب الله وسنة رسوله ما يكفينى . كن «الحذرَ لا ينجى من القدر» .

فقال أوزوريس :
ـ إنك تستحق عندنا كرسى الخلود . وسنسجل ذلك فى تزكيتنا لك .

٢١

ونادى حورس :
ـ السيد عمر مكرم .
فدخل رجل أقل من الطويل وفوق المتوسط ، بنيانه مستقيم ، ومضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .
ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :
ـ ولدت فى أسيوط ، وتلقيت العلم والأخلاق والدين على يد الصفوة . ثم تبوأت نقابة الأشراف . ودأبت على الدفاع عن الشعب المعذب . ولما جاء الفرنسيون لغزو مصر ، دعوت الشعب للقتال ، وسرت فى طليعته . ولكن جيوشنا انهزمت ، واحتل الفرنسيون القاهرة. وقد اختارنى الفرنسيون لعضوية «الديوان[1]» نبحث عن المقابل له الآن رفضتها بإباء. وهاجرت إلى سوريا تاركًا أموالى وأملاكى عرضة للنهب . ولما غزا الفرنسيون سوريا ، أعادنى نابليون إلى مصر مكرّما . ولكنى اعتزلت فى بيتى ولما ثارت القاهرة كنت على رأس ثورتها . فلما أُخمدت بقسوة هاجرت من مصر ثانية . ولم أعد إلّا بعد جلاء الفرنسيين . وتزعمت الثورة على المماليك ، وعلى الوالى التركى ـ ثم بايعت حاكمًا جديدًا (محمد على باشا) لما لمست فيه من ميل إلى المصريين ، وجنوح إلى العدل والاستقامة . وحتى ذلك الحاكم قاومته ، لما تناسى تعهده لنا ، فنفانى ، وانتهت حياتى فى المنفى ..
وتكلم أبنوم ، فقال :
ـ إنك فرد من الشعب ، كرّس حياته للدفاع عن الشعب ـ دعاه للقتال لأول مرة منذ ثورتى المباركة . وثار على الحاكم الأجنبى ، وولىّ بقوة الشعب حاكمًا

(١) مما يشبه مجلس الشورى حاليًا

جديدًا . خبرنى ، أكان الحاكم الجديد من أبناء الشعب أيضًا ؟

فأجاب السيد عمر مكرم :

ـ كلا ، ولكنه كان مسلمًا وظهر لى عادلاً .

ـ يا للخسارة ، ولماذا لم تستول على الحكم ؟

ـ ما كانت الدولة العثمانية توافق على ذلك .

ـ أقول مرة أخرى ، يا للخسارة ..

فقال أخناتون :

ـ لعلك آثرت وحدة الإسلام .. دين الإله الواحد ؟

ـ أجل ، ذلك ما آثرته كمؤمن بالله ورسوله .

قالت إيزيس :

ـ على أى حال .. فإنى سعيدة بهذا الابن .

وقال أوزوريس :

ـ إنك تستحق مكانك بين الخالدين : وسنسجل ذلك فى تزكيتنا لك .

٢٢

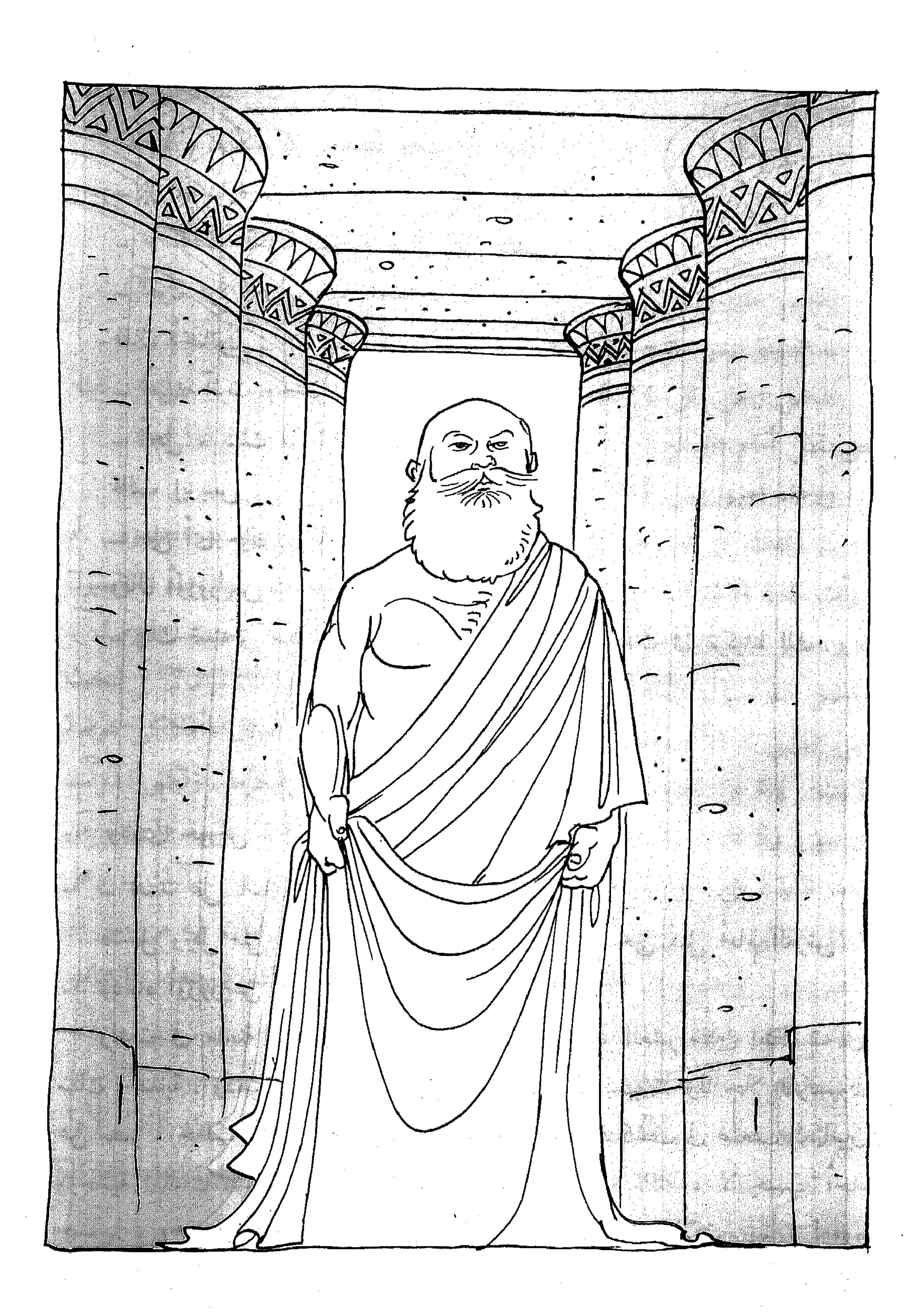
ونادى حورس :

ـ محمد على باشا .

فدخل رجل ملىء ، قوى البنيان مستقيمه . وتقدم حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ولدت فى مدينة قولة ـ نشأت يتيمًا ـ ولما جاوزت العشر سنين انتظمت فى سلك الجندية . وذهبت إلى مصر ضمن حملة لقتال الفرنسيين . ولما جلا الفرنسيون عن مصر ، جعلت أدرس الأحوال وأفكر فى المستقبل . فتكشّف لى ضعف العثمانيين ووحشية المماليك الذين يحكمون باسمهم . وانتبهت إلى قوة ثالثة ، لا يحسب أحد حسابها ، وهى قوة أهالى البلاد وزعمائهم . فقررت أن أوثق علاقتى بهم ، لعلهم يصلحون أساسًا ، أقيم عليه دولة جديدة ، تستعيد من الماضى أمجاده الغابرة .



ونجحت فى ذلك أيما نجاح ـ حتى خلع الأهالى الوالى التركى ، وبايعونى محله ـ واعترف الباب العالى[1] بالأمر الواقع ، فاستتب لى الأمر. وشرعت فى العمل ، ولم أكف عنه حتى نهاية عمرى .

تخلصت من المماليك وهم الشر المقيم. وتلقيت من الباب العالى أمرًا بمحاربة الوهابيين فى الجزيرة العربية ، فانتصرت عليهم. وكوّنت جيشًا من المصريين ، وفتحت السودان .

وأنشأت للجيش مدارس ومصانع . كما أنشأت أسطولاً مستعينًا فى ذلك كله بالخبراء الفرنسيين .

ولم أغفل الإصلاح . فنظمت الإدارة والأمن ، وأدخلت زراعات جديدة كالقطن والنيلة والأفيون ، وغرست الأشجار والحدائق . ومن آثارى الكبرى القناطر الخيرية .

كما أنشأت مدارس للطب ، وبنيت المستشفيات ـ وأرسلت البعثات من أبناء البلاد لفرنسا ، بلد الحضارة الحديثة . كما أنشأت أول مطبعة فى الشرق وهى مطبعة بولاق .

وطلب منى الباب العالى أن أحارب عنه المتمردين فى المورة والشام . فحققت انتصارات عظيمة ، حتى حلّ الرعب فى قلب الباب العالى نفسه . فأراد أن يوقفنى عند حدى ـ ولكنى حاربته ، وغزوت بلاده ، وكدت أستولى على عاصمته لولا تدخل الدول الأجنبية الكبرى ، التى خافت أن تتجدد دولة الإسلام على يدى ـ وتجمعت علىّ هذه الدول ، واضطرتنى للخضوع للباب العالى ، نظير أن يجعل حكم مصر وراثيًا فى بيتى .

واضطررت لتصفية الجيش ، وكثير من المدارس والمصانع ، وساءت حال البلاد . ولم أحتمل النهاية ففقدت عقلى .. ثم حياتى .

قال خوفو :

ـ كأنها أسرة فرعونية جديدة ، رغم أصلها الأجنبى ـ وقال تحتمس الثالث :

---

(١) مقر حكم الخلافة العثمانية بتركيا

ـ لقد أعدت امبراطوريتى ، وأنى أشهد لقائدك بالبراعة . ولكنك فقدتها فى أثناء حياتك . فهى أقصر الامبراطوريات عمرًا فى التاريخ .

وقال تحتمس الثالث :

ـ إنى أشهد لك بالعظمة . وعلى ضوء ذلك أفهم غرورك . وكان بودى أن أتسامح معك ، لولا النهاية السريعة الأسيفة لامبراطوريتك وهى تعنى أن إدراكك ـ رغم ذكائك ـ كان ناقصًا . لم تدرك أبعاد الموقف الدولى جيدًا ، فتحديته ، وأنت لا تدرى ، وعرضت نفسك لقوة لا تقدر عليها .

ـ اعتقدت أن فرنسا ستقف إلى جانبى حتى النهاية .

فقال له الحكيم بتاح حتب :

ـ هذا أيضًا لا يدفع عنك تهمة قِصر النظر .

فقال محمد على :

ـ كانت هناك فرصة مواتية لتجديد دولة الإسلام انطلاقًا من مصر الفتية .

فقال أخناتون :

ـ إنى أدرك ذلك تمامًا . وأحيى طموحك لاحياء دولة الواحد الأحد .

فقال الملك خوفو :

ـ ليتك وضعت عبقريتك وأحلامك فى تقوية مصر ، وقنعت بذلك .

وقال أبنوم :

ـ استخدمت الفلاح فى سبيل الأرض والدولة . ومهما يكن من أمر ، فلن أنسى لك فضل دفعك الفلاحين إلى مسرح الإدارة والسياسة والعسكرية والعلم .

وهنا قالت إيزيس :

ـ من أجل ذلك أعتبر هذا الحاكم الأجنبى من أبنائى .

وقال أوزوريس :

ـ لو كانت هذه المحكمة هى صاحبة الفصل فى تقرير مصيرك ، لوجهت إليك نقدًا قاسيًا ، ثم حفظت لك حقك فى مقعدك بين الخالدين .

وسنرفع بشأنك تقريرًا إلى محكمتك الإسلامية ، ينوّه بأعمالك الجليلة ، وسيعتبر فى حملته تزكية لشخصك من مصر وآلهتها .

٢٣

ونادى حورس :

ـ أحمد عرابى .

فدخل رجل مائل للطول ، ممتلئ الجسم بعض الشيء ، ذو رزانة ووقار . فتقدم حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ حفظت القرآن صغيرًا بقريتى بالشرقية ، وانتظمت فى سلك الجندية فى الرابعة عشرة . وصلت إلى رتبة قائممقام (عقيد) فكنت أول مصرى يصل إلى هذه الرتبة . وكانت الرتب الكبيرة وقفا على الشراكسة . وكان المصرى محتقرًا فى وطنه . فأقنعت بعض الزملاء بالمطالبة بعزل وزير الحربية الشركسى المتحيز ، فقبض علينا . فثار الجند الوطنيون حتى أفرج عنا . ولمست ما يعانيه الشعب من ظلم ، فتحركت بالجيش إلى قصر عابدين ، وطالبت الخديو باسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب . فقال لى «أنا ورثت ملك هذه البلاد , وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا» . فقلت «لقد خلقنا الله أحرارًا ، ولم يخلقنا تراثًا وعقارًا ، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ، ولا نستعبد بعد اليوم» .

وقد انتصرنا على أعداء الشعب ، وتكون مجلس نيابى ووزارة وطنية . ثم تدخلت الدول الأجنبية لمنع المصريين من تولى شئونهم خوفًا على مصالحها . وخان الخديو الوطن ومعه بعض الانتهازيين . واتفقوا مع أعدائنا الإنجليز. ودافعنا عن وطننا بكل ما نملك ، ولكننا انهزمنا . وحوكمنا ، وحُكم علينا بالنفى المؤبد ومصادرة أملاكنا .

وتكلم الملك خوفو فقال :

ـ ولكنك تحديت الجالس على العرش ، وخاطبته بما لا يُخَاطب به الملوك .

فقال أوزوريس :

ـ تغيّر الزمان أيها الملك . فلم يعد الملوك يحكمون نيابة عن الآلهة . صاروا يحكمون بالمشاركة مع الشعوب .

فقال خوفو :

ـ مشاركة الفلاحين فى الحكم ، تعنى الفوضى .

فقال أبنوم :

ـ بل هى وثبة كبرى فى طريق الخير والتقدم .

وقال أحمد عرابى :

ـ كان الخديوى ورجاله من عنصر أجنبى .

فقال الملك مينا :

ـ لقد قامت وحدة مصر على عناصر بشرية متنوعة الأصل ، اندمجت جميعها فى الوطن ، وأخلصت للعرش .

فقال أحمد عرابى :

ـ لم أكافح إلا العناصر التى رفضت الاندماج . والدليل على ذلك أن حزبى كان فيه وطنيون من أصل شركسى .

وتكلم تحتمس الثالث ، فقال :

ـ كان الموقف يتطلب قيادة عسكرية خارقة فى عبقريتها . وللأسف لم يتهيأ لك ذلك .

فقال أحمد عرابى :

ـ بذلت أقصى ما لدىّ .

وقال رمسيس الثانى :

ـ كان يجب أن تقاتل حتى الموت بين جندك .

وقال أبنوم :

ـ وكان يجب أن تقضى على جميع أعدائك ، لتقضى على الخيانة فى مهدها .

فقال اخناتون :

ـ أنت رجل طيب القلب . فحدثت لك النهاية التى تحدث للقلوب الطيبة .

وقال الحكيم بتاح حتب :

ـ هكذا .. ثرت من أجل حرية الشعب ، فجررت عليه احتلالاً أجنبيًا .

وهنا قالت إيزيس :

ـ هذا ابن امتلأ قلبه بالنوايا الطيبة . ووهب شعبه ما يملك من حب غير محدود ، وقدرات محدودة . وقد تآمر الأعداء على تصفية ثورته . ولكنهم لم يستطيعوا استئصال البذرة التى غرسها فى الأرض الطيبة .

وقال أوزوريس :

ـ إنى أعتبرك نورًا تألق فى الظلمات التى أطبقت على وطنك ـ وقد عوقبت فى حياتك بما يكفّر عن أخطائك . فعسى أن تحظى بالبركات فى ساحة محكمتك . وسننوه بفضلك .. بما تستحقه .

٢٤

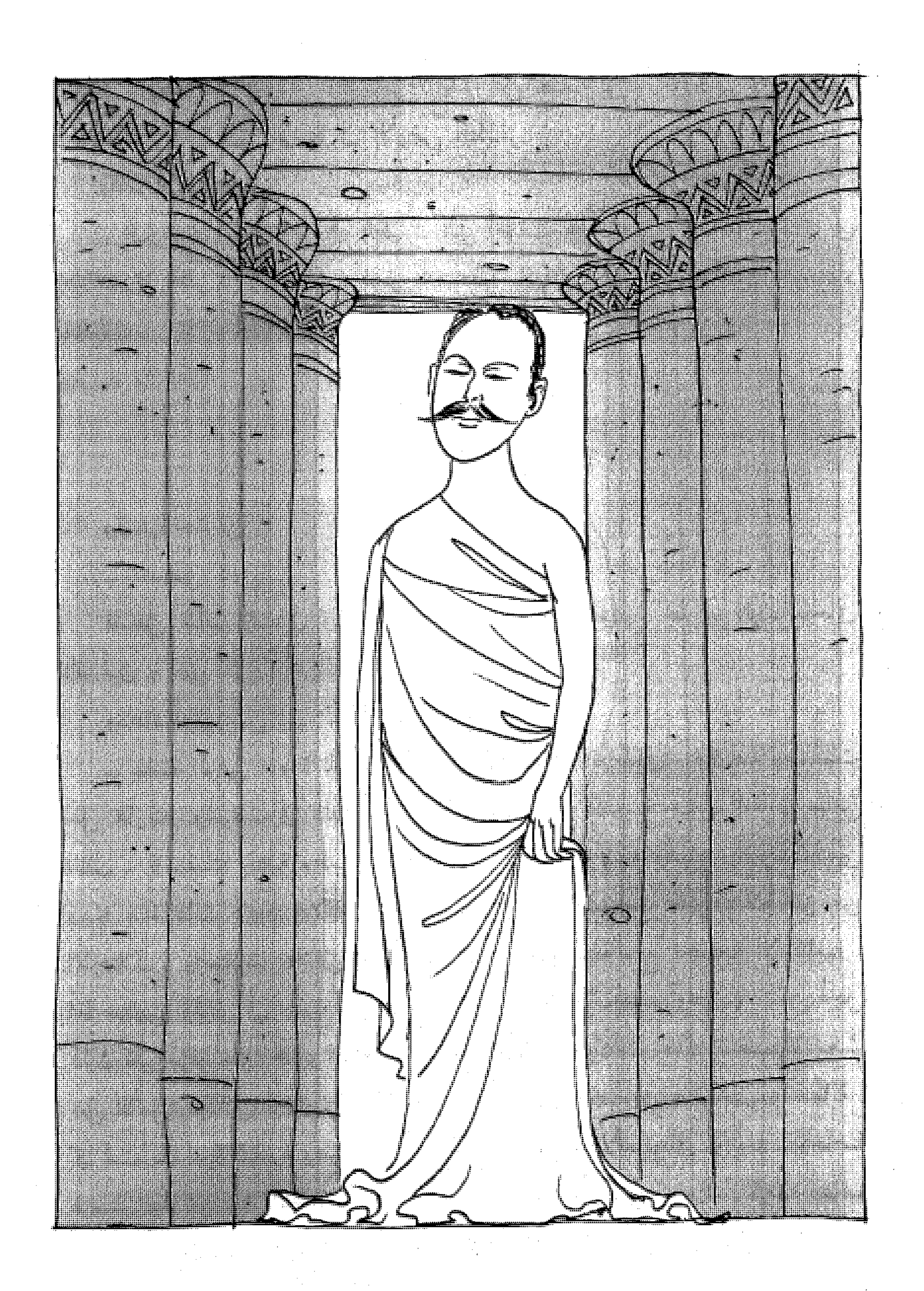
ونادى حورس :

ـ مصطفى كامل .

فدخل شاب ممشوق القامة ، عذب الملامح . ومضى عارى الرأس حافى القدمين ، حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال :

ـ بلغت الوعى ، وأنا تلميذ ، فى عصر الاحتلال البريطانى . فكرهته وصممت على محاربته. وشرعت فى ذلك وأنا تلميذ . وزارنا فى المدرسة جناب الخديو عباس الثانى ، فاستقبلته بخطبة وطنية حماسية ، استجابت لها وطنيته وشبابه . وتوثقت بينى وبينه منذ ذلك اليوم علاقة وثيقة . فمضى يمدنى بالتشجيع والمال للتخلص من الاحتلال . واستقرت علاقتى على نفس النهج مع الخليفة ومع الجمعية الإسلامية . أما وجهتى وقبلتى فى جميع الأحوال ، فكانت استقلال مصر وحريتها . من أجل ذلك تغيّر موقفى من الخديو عندما اتفق مع الاحتلال . وكانت حال الشعب لا تبعث على الأمل . ولكنى لم أقصر فى إيقاظ وعيه الوطنى بالكلمة فى الصحف والخطابة . كما قمت بالدعاية لقضية وطنى فى الخارج ، حتى عرفها الأحرار فى أوروبا ، وخاصة فرنسا . ولما ارتكب الإنجليز جريمتهم الكبرى فى قرية دنشواى ، استنكرت أعمالهم الوحشية ، ونددت بالأحكام التى أصدرتها المحكمة الزائفة على أهل القرية الأبرياء .



فزعزعت عرش طاغية الإنجليز فى مصر حتى اضطرت بلاده إلى استدعائه . ثم أسست الحزب الوطنى . وهو أول حزب سياسى منظم أنشئ فى مصر ، تضمن برنامجه الجلاء والدستور فى ظل الدولة العثمانية . وواظبت على الجهاد فى الداخل والخارج حتى أسلمت الروح فى عز الشباب .

وتكلم بساماتيك الثالث (سبق أن جاء فى دوره ، وحكم له بالجلوس بين الخالدين) وقال :

ـ لقد عاصرت الاحتلال الفارسى مثلما عاصرت أنت الاحتلال الإنجليزى . وحاولت مثلك إيقاظ الوعى الوطنى . فلما علم قمبيز (ملك الفرس) بأمرى قتلنى دون تردد . فكيف تركك الإنجليز دون عقاب ؟

فقال مصطفى كامل :

ـ كان الاحتلال قد تمكن من تثبيت سيطرته الكاملة على البلاد . فلم ير بأسا من منح معارضيه شيئا من الحرية ، استهانة بهم فى الواقع ، وتظاهرا أمام العالم بأنه يعطينا الحرية .

ـ زمانك وفرّ لك من الأمان ما لم يوفر لى بعضه . والحق أنى لم أعرف مجاهدا سعيد الحظ مثلك . حظيت بتأييد الخديو والخليفة والجمعية الإسلامية . وهاجمت عدوك فى الداخل والخارج دون عقاب . واكتسبت مجدا وشهرة دون أن تدفع شيئا . لم تقتل كما قتلت أنا . ولم تُنْف كما نفى أحمد عرابى .

فقال مصطفى كامل :

ـ أحمد عرابى جرّ على بلاده الاحتلال .

فقال له أبنوم :

ـ كيف يتهم الرجل ، وهو ما ثار ونفى إلا دفاعا عن شعبك ؟

فقال مصطفى كامل بإصرار :

ـ إنى أعتبره المسئول الأول عن الاحتلال .

فقال أبنوم :

ـ إنك شاب وطنى متحمس صادق النية سعيد الحظ . عشت حياتك فى جو معطر بأبهة العرش والخلافة والحضارة الفرنسية . لم تشم رائحة العرق ، ولم تكابد آلام

الجهاد الحقيقية ، ولم تتورّع عن ظلم الثائر الحقيقى .

وهنا قالت إيزيس :

ـ إنه الابن الذى أيقظت حماسته الوجدان الوطنى بعد أن كاد الاحتلال يخمد أنفاسه .

وقال أوزوريس :

ـ لم يكن بوسعك أن تفعل خيرا مما فعلت . ولن ينسى لك فضل كلماتك . فأذهب إلى محكمتك مصحوبا بدعواتنا القلبية .

٢٥

ونادى حورس :

ـ محمد فريد .

فدخل رجل متوسط القامة ، ممتلئ الوجه . وتقدم عارى الرأس ، حافى القدمين ، حتى وقف أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ انحدرت من أسرة عريقة فى الارستقراطية . وشاركت مصطفى كامل فى موقفه الوطنى منذ بدايته . وبسبب ذلك ، استقلت من الحكومة ، وتفرغت للقضية الوطنية قبل كل شىء . وتوثقت العلاقة بينى وبين مصطفى . فرشحنى لخلافته فى رياسة الحزب . وقد سرت على نهجه فى الوطنية والخطابة والكتابة ، حتى قبض علىّ وزج بى فى السجن . وفى السجن ساومونى كى أخفف من عنف موقفى لقاء العفو ، فرفضت أى مساومة . ولما خرجت من السجن ، كنت أصلب عودا ، وأشد مراسا . وقمت برحلات فى البلاد أدعو فيها للوطنية . فدُبّرت مؤامرات لادخالى السجن مع قادة الحزب الكبار . فقر قرارنا على الهجرة ومواصلة الجهاد فى الخارج . وأحكمنا التدبير للهرب فى الوقت المناسب . ونجحنا فى ذلك . وبقدر ما أنجزنا من كسب لقضية مصر فى الخارج . بقدر ما تعرض الحزب فى الداخل للضعف والتفكك . وكابدنا المرّ من الحنين إلى مصر والأهل ، ومن تخلى الكثيرين عنا . وقامت فى مصر

ثورة ١٩١٩ ، ثورة غير متوقعة . قامت وأنا منسىّ فى المنفى ، وآخرون يتربعون على كراسى الزعامة . وقد أظهرنا رضانا على رجالها ، مع اعتقادنا بعدم إخلاص أكثرهم . وهنأنا الأمة على ثورتها . وحيينا ذكرى شهدائها . ودعوناها إلى الصمود حتى النهاية . وانتهت حياتنا فى المنفى .

وتكلم بساماتيك الثالث ، فقال :

ـ زعامة غطّى عليها ما تعرضت له من اضطهاد .

وقال الحكيم بتاح حتب :

ـ كان بوسعك أن تنعم بحياة مترفة وجاه كبير ، كسائر رجال طبقتك الثرية . ولكنك رميت ذلك كله ، واخترت النضال والعذاب فى سبيل مصر . إنك رجل عظيم .

أما أبنوم ، فقال :

ـ خبّرنى ، كيف يترك زعيمٌ ، أمته فى محنة ، ليجاهد فى الخارج ؟

فقال محمد فريد :

ـ كان الجهاد فى الخارج ضمن خطتنا الوطنية ، منذ أيام مصطفى كامل ..

فقال أبنوم :

ـ قد يُقبل كعمل إضافى ، يستكمل به العمل الأصلى فى الداخل . أما أن تهاجر أنت والقادة تاركين حزبكم بلا قيادة حقيقية ، فهو تصرف بعيد عن الحكمة . لا أنكر وطنيتك ، ولكن ..

فقالت إيزيس :

ـ أما أنا فأعتبره من خير أبنائى خلقا وإخلاصا ووطنية .

ولم يكن فى وسعه أن يفعل خيرا مما فعل ، مع مراعاة ظروف مولده ونشأته .

وقال أوزوريس :

ـ لك منا تزكية يسندها الحب والاحترام . فأذهب سلام إلى محكمتك مع أصدق تمنيات التوفيق .

٢٦

ونادى حورس :

ـ سعد زغلول .

فدخل رجل طويل القامة ، مهيب الطلعة ، قوى القسمات ، جذاب الملامح . وتقدم فى سيره حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ ولدت فى إبيانه . درست فى الأزهر . تتلمذت على جمال الدين الأفغانى . عملت محررا بالوقائع المصرية تحت رئاسة وأستاذية محمد عبده . انضممت إلى العرابيين فى ثورتهم . وفى أول عهد الاحتلال البريطانى اعتقلت كعضو فى جمعية الانتقام ، وفصلت من وظيفتى . فعملت فى المحاماة ، فالقضاء . اخترت وزيرا للمعارف ثم وزيرا للعدل . وعقب انتهاء الحرب العالمية الأولى وإعلان الهدنة ، توليت زعامة الحركة الوطنية . وأقمتها على أساس متين من الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين . وناديت بحق مصر فى الحرية والاستقلال . فقبضت علىّ السلطات البريطانية ، ونفتنى إلى جزيرة مالطة . وما أن ذاع الخبر ، حتى قامت الثورة الشعبية على نفيى ، وطالبت بالاستقلال ، مما اضطر انجلترا إلى الإفراج عنى . وسافرت مع أعضاء الوفد المصرى إلى باريس ، لعرض قضيتنا على مؤتمر الصلح هناك . فأغلق أبوابه فى وجوهنا. ودخلنا فى مفاوضات مع الإنجليز دون نتيجة . وحدث انقسام فى الوفد . ورجعت إلى مصر . ثم نفيت مرة أخرى إلى جزر سيشيل فى المحيط الهندى . ولم يفرج عنى إلا سنة ١٩٢٣ . وتوليت الوزارة سنة ١٩٢٤ بعد انتخابات شعبية . ودخلت فى المفاوضات التى سرعان ما فشلت . واضطررت إلى الاستقالة عقب اغتيال أحد كبار الإنجليز . ثم ائتلفت الأحزاب أمام ديكتاتورية الملك فؤاد . وتوليت رياسة مجلس النواب ، تاركا رياسة الوزارة للدستوريين . ودارت المفاوضات من جديد . ولكنى غادرت الدنيا ، قبل أن أعرف نتائجها .

وتكلم أبنوم ، فقال :

ـ قمت أنا بأول ثورة شعبية فى نهاية الدولة القديمة ، وقمت أنت بالثورة الشعبية

الثانية بعد آلاف السنين. فأنت أخى وخليفتى وحبيبى.

فقال الملك خوفو:

ـ هناك فرق بين الثورتين يجب أن يذكر. فثورة أبنوم كانت ثورة العامة على الصفوة، أما ثورة سعد زغلول فكانت ثورة شعب مصر كله، فقراء وأغنياء، على الاحتلال الأجنبى.

وقال الملك مينا:

ـ لقد وحّدت المصريين، كما وحدت أنا مملكتهم. فأنت فى ذلك صديقى وخليفتى.

وسأله أمحتب وزير الملك زوسر:

ـ رغم ما تحقق لك من زعامة بعد الثورة، فقد قبلت العمل فى ظل الاحتلال قبل الثورة، ولم تنضم للحزب الوطنى. ما تفسير ذلك؟

فقال سعد زغلول:

ـ كان الحزب الوطنى يدعو إلى مبادئ خيالية. منها: لا مفاوضة إلا بعد الجلاء. ومنها مقاطعة الوظائف العامة لهيمنة الإنجليز عليها. كيف نترك الوظائف العامة للأجانب؟ لقد قبلت الحياة الرسمية لأمارس من خلالها، ما استطعته من مقاومة، ومن أداء خدمات لوطنى كان فى أشد الحاجة إليها: وقد اعترف بذلك خصومى قبل أصدقائى.

فقال أوزوريس مخاطبا الجميع:

ـ نحن فى هذه المحكمة لا نناقش إلا الأعمال الفاصلة.

ثم خاطب سعدا قائلا:

ـ قال خصومك إن الثورة قامت وأنت فى المنفى. وأنك لم تفعل شيئا لاشعالها. بل إنك دهشت لقيامها، وكانت حدثا غير متوقع. فما قولك فى ذلك؟

فقال سعد زغلول:

ـ كانت حال البلاد تدعو لليأس. وأعترف بأننى دهشت لقيام الثورة، كما دهش الزعيم السابق محمد فريد.

ولكنى لم أقصر فى تهيئة الجو لها بالخطابة فى كل مناسبة، والاجتماع بالناس فى

بيتى ، وفى دعوتهم فى الريف والمدن مما عبأ الشعور القومى . والثورة قامت احتجاجا على نفيي . فكان شخصى فى الواقع هو مشعلها المباشر.

فقال أوزوريس :

ـ وقيل أيضا ، إن تعصبك لزعامتك هو ما دفع العقلاء من زملائك للانشقاق عليك . فما قولك فى ذلك ؟

فقال سعد زغلول :

ـ المسألة أننى اندمجت فى الثورة وآمنت بها ، أما العقلاء فقد كرهوا الثورة وخافوها وقنعوا بالحلول الزائفة .

وقال بعض زملائك ، كان يجب أن تبقى على رأس الثورة ولا تقبل رئاسة الوزارة ؟

فقال سعد زغلول :

ـ كانت وزارتى امتدادا للثورة على المستوى الرسمى .

فقال أبنوم :

ـ كنت أفضل أن تأخذ برأى هؤلاء الزملاء .

وهنا قالت إيزيس :

ـ لتبارك الالهة هذا الابن العظيم البار . لقد برهن على أن شعب مصر قوة لا تقهر ولا تموت .

وقال أوزوريس :

ـ إنك أول مصرى يتولى الحكم منذ العهد الفرعونى . وتوليته بإرادة الشعب . من أجل ذلك أهبك حق الجلوس بين الخالدين من أجدادك . وسوف تمضى بعد ذلك إلى محكمتك فى الآخرة ، مصحوبا بتزكيتنا وصادق أمانينا .



٢٧

ونادى حورس :

ـ مصطفى النحاس .

فدخل رجل قوى الجسم والوجه ، مائل للطول . تقدم فى سيره حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ ولدت فى سمنود ، فى أسرة من أبناء الشعب الفقراء . وبفضل اجتهادى أتممت تعليمى . ولتفوقى عينت فى القضاء ، فعرفت بالعدل والنزاهة . وكنت من أنصار الحزب الوطنى ، فكنت زميلا لرئيسه فى المدرسة الخديوية . وعند تأليف الوفد برياسة سعد زغلول ، اختارنى عضوا فيه . ونفيت معه إلى سيشيل عام ١٩٢١ . واشتركت فى وزارته الشعبية الثورية . وعقب وفاته انتخبت رئيسا للوفد . وحملت عبء الجهاد فى سبيل الاستقلال والحياة الديمقراطية ربع قرن من الزمان . وقد توليت الوزارة سبع مرات . وجرت إقالتى منها ست مرات ، لخلافات مع الإنجليز أو الملك . وفى عام ١٩٣٦ ، وتحت ضغط التهديد بحرب عالمية ، قبلت الائتلاف مع الأحزاب . وعقدنا معاهدة مع الإنجليز ، اعترفت باستقلال مصر ووعدت بالجلاء بعد عشرين عاما . وقامت الحرب العالمية فى فترة حكم استبداد ملكى ، واتهم الملك (فاروق) بالاتصال بأعداء الإنجليز ، فنشبت أزمة سياسية خطيرة ، وفكّر الإنجليز فى خلع الملك . وتقدّمت لانقاذ البلاد والعرش ، وألّفت وزارة فى ظروف عسيرة . ولما انتهت الحرب بانتصار الإنجليز ، شرعت فى المطالبة بالجلاء الفورى . ولكن الملك أقالنى ، ورجع الملك إلى استبداده . وسارت الأمور من سيىء إلى أسوأ ، حتى اضطر الملكَ إلى الموافقة على استفتاء الشعب عام ١٩٥٠ ، فرجعت إلى الوزارة . وفاوضت الإنجليز من أجل الجلاء . ولما لم أجد منهم استجابة ، ألغيت المعاهدة ، وأعلنت الجلاء . فتآمر علىّ أعدائى فى الداخل والخارج ، واستطاع الملك أن يتخلص منى . وقامت ثورة يوليو ، واضطررت إلى اعتزال السياسة حتى وافانى الأجل .

فقال أوزوريس :

ـ يهم الحاضرين أن يعرفوا بعض الانجازات التى قدمتها فى أثناء توليكم الوزارة .

فقال مصطفى النحاس :

ـ بالرغم من أن الشعب لم يحكم إلا ثمانية أعوام ، نظير تسعة عشر عاما استبدّ فيها الملك وأحزاب الأقلية بالسلطة ، وبالرغم مما تعرضت له من اضطهاد وعسف ومحاولات متكررة لاغتيال حياتى ، فقد وفقنى الله إلى تحقيق خدمات غير قليلة . منها على سبيل المثال : إلغاء الامتيازات الأجنبية ، إلغاء صندوق الدين ، تأسيس جامعة الدول العربية ، استقلال القضاء ، استقلال الجامعة ، قانون التوظف ، منع الأجانب من تملك الأراضى الزراعية ، التعويض عن إصابات العمل والتأمين الاجبارى ضدها ، الاعتراف بنقابات العمال ، فرض استعمال اللغة العربية فى الشركات الأجنبية ، الضمان الاجتماعى ، ديوان المحاسبة ، مجانية التعليم الابتدائى والثانوى والمتوسط .

وقال أبنوم :

ـ مرحبا بالثائر الشعبى الثالث فى حياة شعبنا . وقد استمد قوته من إيمانه بشعبه وإلهه ، واتسمت حياته بالكفاح الطويل والنزاهة ، وعاش فقيرا ومات فقيرا .

وقال الملك أخناتون :

ـ تقبل حبى أيها الزعيم . أنك مثلى تفانيت فى الإيمان بالله الواحد ، والإخلاص للمبادئ الطاهرة . ومثلى أيضا فى حب البسطاء من الشعب والاختلاط بهم ، ومثلى أخيرا فيما حظيت به من نشوة النصر ، وما ابتليت به من الجحود والهزيمة . ولكن أبشر ، فالنصر فى النهاية لنا ..

وهنا قالت إيزيس :

ـ وهذا ابن أصيل من أبنائى البررة .

فقال أوزوريس :

ـ أهبك حق الجلوس مع الخالدين حتى نهاية المحاكمة ، ثم تمضى إلى محكمتك مشفوعا بأكرم تزكية .

٢٨

ونادى حورس :

ـ جمال عبد الناصر.

فدخل رجل طويل القامة ، واضح الملامح ، عظيم الشخصية ، ومضى فى سيره حتى وقف أمام العرش .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال :

ـ أنتمى إلى قرية بنى مر من أعمال أسيوط ، ونشأت فى أسرة فقيرة من أبناء الشعب ، فكابدت مرارة العيش وشدته . وتخرجت من الكلية الحربية عام ١٩٣٨ . واشتركت فى حرب فلسطين. وحوصرت مع من حوصر فى الفالوجا . وقد هالتنى الهزيمة ، وهالتنى أكثر جذورها الممتدة فى أعماق الوطن . فخطر لى أن أنقل المعركة إلى الداخل ، حيث أعداء البلاد الحقيقيون . وأنشأت فى سرية وحذر ، تنظيم الضباط الأحرار. وتابعت الأحداث ، انتظارا للخطة المناسبة ، للانقضاض على النظام القائم وقد حققت هدفى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ثم تتابعت إنجازات الثورة ، مثل إلغاء النظام الملكى ، واستكمال استقلال البلاد بالجلاء التام ، والقضاء على الاقطاع بإصدار قانون الإصلاح الزراعى ، وتمصير الاقتصاد ، والتخطيط لإصلاح شامل فى الزراعة والصناعة ، يستهدف خير الشعب وتذويب الفوارق الطبقية ، وبنينا السد العالى ، وأنشأنا القطاع العام متجهين نحو طريق الاشتراكية ، وكونا جيشا حديثا قويا ، ونشرنا الدعوة للوحدة العربية ، وساندنا كل ثورة عربية أو إفريقية ، وأممنا قناة السويس ، فكنا منارة وقدوة للعالم الثالث كله فى نضاله ضد الاستعمار الخارجي والاستغلال الداخلى ، وحظى الشعب الكادح فى عهدى بعزّة وقوة لم يعرفها من قبل ، ولأول مرة يشق طريقه إلى المجالس التشريعية والجامعات ويشعر بأن الأرض أرضه والوطن وطنه .

وقد تربصت بى قوى الاستعمار حتى أنزلت بى هزيمة منكرة فى ٥ يونيه ١٩٦٧ ، فزلزلت العمل العظيم من جذوره ، وقضت علىّ بما يشبه الموت قبل موافاتى لأجلى بثلاثة أعوام .



وقد عشت مصريا عربيا مخلصا ، ومت مصريا عربيا شهيدا .

وتكلم الملك رمسيس الثانى ، فقال :

ـ دعنى أعرب لك عن عظيم حبى وإعجابى . وحبى لك هو امتداد لحبى لذاتى . فما أكثر أوجه الشبه التى تجمع بيننا . كلانا يشعّ عظمة تملأ الوطن وتتجاوز حدوده ، وكلانا جعل من هزيمته نصرا فاق كل نصر. وكلانا لم يقنع بأعماله المجيدة الخالدة ، فأغار على أعمال الآخرين ممن سبقوه . وقد ساعدنى الحظ بأن توليت عرش مصر وهى سيدة الأمم ، أما أنت فحكمتها وهى أمة صغيرة وسط عمالقة . وقد وهبتنى الآلهة طولا فى العمر وقوة فى الروح والجسد ، وضنّت عليك إلا بالقليل ، فعاجلك الأجل قبل الأوان .

وتكلم الملك مينا ، فقال :

ـ ولكن اهتمامك بالوحدة العربية فاق اهتمامك بالوحدة المصرية ، فحتى اسم مصر الخالد شطبته بجرة قلم . واضطررت العديد من أبناء مصر إلى الهجرة ، التى لم يمارسوها إلا فى فترات قهر عابرة .

فقال جمال عبد الناصر :

ـ ليس الذنب ذنبى ، إذا توهم بعض المصريين أن الوحدة العربية تعنى الضياع لهم . وليس الذنب ذنبى ، إذا تحققت أعمال مجيدة على يدى ، بعد أن عجز السابقون عن تحقيقها . فالحق أن تاريخ مصر الحقيقى بدأ مع ٢٣ يوليه ١٩٥٢ .

وسرت همهمة بين الجالسين ، وأخذت تشتد ، حتى هتف أوزوريس :

ـ النظام والهدوء أيها السادة . افسحوا صدوركم لأى قول يقال ..

فقال الملك تحتمس الثالث :

ـ على الرغم من نشأتك العسكرية ، فقد أثبت قدرة فائقة فى كثير من المجالات إلا المجال العسكرى . بل إنك لم تكن قائدا له شأن ، بأى حال من الأحوال .

فقال جمال عبد الناصر :

ـ تعذّر علىّ النصر على جيش متفوق فى التسليح وتؤيده أقوى دولة على سطح الأرض .

فقال أمحتب وزير الملك زوسر :

ـ كان واجبك أن تتجنب الحرب ، وأن تكف عن استفزاز الدول الكبرى .

فقال جمال عبد الناصر :

ـ كان ذلك يتناقض مع أهدافى . كما أنى خدعت أكثر من مرة .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ عذر أقبح من الذنب .

وقال سعد زغلول :

ـ لقد حاولت أن تمحو اسمى من الوجود ، كما محوت اسم مصر . رغم ذلك ، لم أضمر لك الرفض . واعتبرت تجنيك علىّ نزوة شباب ، يمكن التسامح معها نظير ما قدمت من خدمات جليلة . لقد قامت الثورة العرابية ، فناضلت نضالا كريما ، وأُحْبطت إحباطا أليما . وقامت ثورة ١٩١٩ ، فحققت من الانجازات المجيدة ما شهد به التاريخ . ولكن تكاثر أعداؤها حتى اجتاحها حريق القاهرة . ثم جاءت ثورتك ، فتخلصت من الأعداء ، وأتممت رسالة الثورتين السابقتين . وبالرغم من أنها بدأت كانقلاب عسكرى ، إلا أن الشعب باركها ومنحها تأييده . وكان بوسعك أن تجعل من الشعب قاعدتها ، وأن تقيم حكما ديمقراطيا رشيدا . ولكن اندفاعك المضلل فى الطريق الاستبدادى هو المسئول عن جميع ما حل بحكمك من نكبات ونتائج عكسية .

فقال جمال عبد الناصر :

ـ كان يلزمنا فترة انتقال لتحقيق الأسس الثورية ..

فقال مصطفى النحاس :

ـ حجة دكتاتورية واهية .. طالما سمعناها من أعداء الأمة . لقد انهلت بدباباتك على القاعدة الوفدية الشعبية ، وعجزت عن إقامة بديل عنها . فظلت البلاد تعانى الفراغ . ووقعت فى تناقض مؤسف بين عمل إصلاحى يعتبر فى روحه امتدادا لروح الوفد ، وبين أسلوب حكم يعتبر امتدادا لحكم الملك والأقليات ، حتى قضى أسلوبك فى الحكم على جميع النوايا الطيبة .

فقال جمال عبد الناصر :

ـ الديمقراطية الحقيقية ، كانت تعنى عندى تحرير المصرى من الاستعمار والاستغلال والفقر .

فقال مصطفى النحاس :

ـ وأغفلت الحرية وحقوق الإنسان . ولا أنكر أنك كنت أمانا للفقراء . ولكنك كنت وبالا على أهل الرأى والمثقفين ، وهم طليعة أبناء الأمة . انهلت عليهم اعتقالا وسجنا وشنقا وقتلا ، حتى أذللت كرامتهم ، وأهنت إنسانيتهم ، ومحقت إيجابيتهم ، وخربت بناء شخصياتهم ، والله وحده يعلم متى يعاد بناؤها . وهم الذين جعلت منهم ثورة ١٩١٩ أهل المبادرة والإبداع فى شتى النشاطات السياسية والاقتصادية والثقافية . بل أفسد استبدادك أجمل قراراتك . انظر كيف فسد التعليم ، وتفسّخ القطاع العام ، وكيف قادك التحدى للقوى العالمية إلى الهزائم المخجلة والخسائر الفادحة . لم تستفد من الرأى الآخر ، ولم تتعظ بتجربة محمد على ، وماذا كانت النتيجة ؟ .. دوىّ ، وجلجلة وأساطير فارغة تقوم على تلٍّ من الخرائب .. فقال جمال عبد الناصر :

ـ لقد نقلت وطنى من حال إلى حال ، كما نقلت العرب وسائر الأمم المغلوبة على أمرها . وسوف تعالج السلبيات حتى تزول ، وينساها الزمن ، ويبقى ما ينفع الناس . وعند ذلك يقر الناس بعظمتى الحقيقية .

فقال مصطفى النحاس :

ـ ليتك تواضعت فى طموحك . ليتك عكفت على إصلاح وطنك ، وفتح نوافذ التقدم له فى شتى مجالات الحضارة .

إن تنمية القرية المصرية أهم من تبنى ثورات العالم . إن تشجيع البحث العلمى أهم من حملة اليمن . ومكافحة الأمية أهم من مكافحة الامبريالية العالمية .

واآسفاه ، لقد ضيعت على مصر فرصة لم تتح لها من قبل .

فلأول مرة يحكمها ابن وطنى من أبناء البلاد ، دون مناوئ من ملك أو مستعمر .

ولكنه بدلا من أن يداوى ابن وطنه المريض ، دفع به إلى مباراة البطولة العالمية ، وهو مثقل بأمراضه .. فكانت النتيجة أن خسر هذا الابن البطولة وخسر نفسه ..

وهنا قالت إيزيس :

ـ إن فرحتى برجوع العرش إلى أحد أبنائى لا تقدر .. وأعماله الجليلة تحتاج إلى جميع جدران المعابد لتسجل عليها .. أما أخطاؤه .. فلا أدرى كيف أدافع عنها ؟

فقال أوزوريس :

ـ لو كانت محكمتنا هى صاحبة الكلمة الأخيرة فى الحكم عليك ، لتطلب العدل منا ، التأمل والعناء الطويلين .. قبل أن نصل إلى حكمنا الأخير.

فقليلون من قدموا لبلادهم مثلما قدمت من خدمات ..

وقليلون من أنزلوا بها مثل ما أنزلت من إساءات ..

ولكن ، بالنسبة لأنك أول من يجلس على عرشها من أبنائى ، وأول من يخص الكادحين برعايته ..

فإننا نسمح لك بالجلوس بين الخالدين لحين انتهاء المحاكمة .. وستذهب بعد ذلك إلى حسابك فى الآخرة ، مؤيدا بتزكية مناسبة .

٢٩

ونادى حورس :

ـ محمد أنور السادات .

فدخل رجل متوسط القامة ، رشيق القد ، عميق السمرة . ومضى فى سيره حتى مثل أمام العرش . ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ ولدت فى قرية ميت أبو الكوم ، ونشأت فى أسرة فقيرة ، ووجدت عناء لا يستهان به كى أستمر فى الدراسة . وقد تشبعت بروح الوطنية منذ صغرى . وشاركت فى المظاهرات الوفدية . ثم أمكننى الالتحاق بالكلية الحربية بعد أن فتحت أبوابها لأمثالى من أبناء الشعب بعد معاهدة ١٩٣٦ .

ومنذ تخرجى ، هالنى وضع الجيش تحت سلطة البعثة العسكرية الإنجليزية . وخامرتنى أفكار للدعوة لثورة مسلحة ضد الإنجليز. فأنشأت أول تنظيم سرى فى الجيش عام ١٩٣٩ . وقد اتصلت بالإخوان المسلمين ، وأعجبت بنشاطهم . كما

حاولت أثناء الحرب الاتصال بالألمان (أعداء الإنجليز الذين يحتلون مصر)، وعقدت العزم على اغتيال المتعاونين مع الإنجليز من المصريين. وقد قُبض عليّ نتيجة لذلك، وحوكمت، ولكنى نلت البراءة، بل رجعت إلى خدمة الجيش. وفى ذلك الوقت، اتصل بى جمال عبد الناصر وضمّنى إلى تنظيمه.

وقامت الثورة فى يوليو ١٩٥٢. وتتابعت الأحداث، حتى وافى الأجل جمال عبد الناصر. فخلفته فى منصبه فى ظرف بالغ الدقة.

وكنت على علم بالسلبيات التى نخرت فى عظام عبد الناصر. فتوثبت لاحداث ثورة جديدة تنقذ البلاد من الموت الذى تتردى فيه. قضيت على مراكز القوى. واتجهت على مهل، نحو الأمان وسيادة القانون والديمقراطية.

وفى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فاجأت العدو المحتل (إسرائيل)، بل فاجأت العالم بهجوم لم يتوقعه أحد. وحققت انتصارا أنقذ الروح العربية من القنوط، وانتشل شرفنا من الهوان.

ثم قمت بمغامرة أخرى، باقتحامى بلد الأعداء، أدعو إلى تصفية الموقف بالكلمة لا بالسلاح. وانتهى سعيى الطويل إلى معاهدة كامب دافيد للسلام.

وناديت بالانفتاح لانقاذ الاقتصاد الوطنى. وتقدمت فى الديمقراطية خطوات جديدة. ولكن اعترضتنى عقبات غيّرت من حساباتى. فقد انحرفت المعارضة، وهبّ التيار الدينى يهدد البلاد بالعنف. فوقفت من الجميع موقفا حازما لا مفرّ منه.

ولكن الأمور انتهت باغتيالى فى ذكرى اليوم الذى حققت فيه لوطنى.. عزّة النصر.

وتكلم الملك أخناتون، فقال:

ـ أحييك كداعية من دعاة السلام. ولا أدهش لاتهام خصومك لك بالخيانة. فقد تلقيت منهم نفس التهمة لنفس السبب..

فقال تحتمس الثالث:

ـ يذكرنى انتصارك بانتصار رمسيس الثانى، الذى انتهى بمعاهدة سلام، والزواج من ابنة ملك الحيثيين:

فقال رمسيس الثانى:



ـ الحاكم مسئول أولا عن حياة شعبه . ومن هذا المنطلق ، يقوم بالحرب أو يجنح إلى السلام .

فقال أنور السادات :

ـ وقد آمنت بصدق ، بعدم جدوى الاستمرار فى الحرب .

وقال الملك أمنحتب الثالث :

ـ ما أشبهك بى ـ أيها الرئيس ـ فى حب الرفاهية لشعبك ولنفسك . كلانا عشق الأبهة ، والنعيم ، والعظمة ، والقصور . غير أن زمانى سمح لى بأن أنهل من النعيم بلا كَدَر ، أما زمانك فأذاقك الحلو والمر . دعنى أعرب لك عن حبى وعطفى .

وقال الملك حورمحب :

ـ أنت توليت الحكم فى ظروف تشبه ـ فى بعض نواحيها ـ الظروف التى تحدّتنى أول حكمى ، عقب وفاة الملك العجوز آى . وأعترف بأنك قمت بأعمال جليلة ، ووجهت ضربات صادقة ، ولكنك تهاونت فى معاقبة الفساد والمفسدين ، حتى أوشكوا أن يحيلوا انتصاراتك إلى هزائم .

فقال أنور السادات :

ـ شغلت بتشجيع الانفتاح عن الضرب على أيدى المفسدين .

فقال حورمحب :

ـ لا قيام لدولة إلا على الانضباط والقيَم .

وسأله جمال عبد الناصر :

ـ كيف هان عليك أن تقف من ذكراى هذا الموقف الغادر ؟

فقال أنور السادات :

ـ اتخذت هذا الموقف مضطرا . إذ قامت سياستى فى جوهرها على تصحيح الأخطاء التى ورثتها عن عهدك .

ـ ولكنك فى عهدى ، كنت راضيا ومشجعا وصديقا ؟

ـ من الظلم أن يحاسب إنسان على موقف له فى زمن رعب أسود ، خاف فيه الأب من ابنه ، والأخ من أخيه .

ـ والنصر الذى أحرزته ، ليس إلا ثمرة استعدادى الطويل له .

فقال أنور السادات :

ـ ما كان لمهزوم مثلك أن يحقق انتصارا . إننى أرجعت للشعب حريته وكرامته ، ثم قدته إلى نصر أكيد .

ـ ثم تنازلت عن كل شيء ، فى سبيل سلام مهين ، فطعنت وحدة العرب طعنة قاتلة ، وقضيت على مصير بالانعزال ..

فقال أنور السادات :

ـ لقد ورثت عنك وطنا يترنح على هاوية الفناء ، ولم يمد لى العرب يد عون صادقة ، فلم أتردد فى اتخاذ قرارى ..

ـ واستبدلت بالعملاق الذى طالما ساندنا ، العملاق الذى طالما ناصبنا العداء .

ـ اتجهت إلى العملاق الذى بيده الحل . وصدقت الحوادث حساباتى .

ـ واندلقت فى الانفتاح ، حتى أغرقت البلاد فى موجة غلاء وفساد . وبقدر ما كان عهدى أمانا للفقراء ، كان عهدك أمانا للأغنياء واللصوص .

فقال أنور السادات :

ـ لقد عملت لخير مصر ، فوثب الأنتهازيون من وراء ظهرى :

وتكلم مصطفى النحاس ، فقال :

ـ حاولت اغتيالى ، وكدت تنجح ، لولا العناية الإلهية . ثم فقدت حياتك نتيجة للاغتيال . فهل ياترى لاتزال تؤمن به ؟

فقال أنور السادات :

ـ نحتاج لأضعاف عمرنا .. لكى نتعلم الحكمة .

فقال مصطفى النحاس :

ـ وسمعت عن دعوتك إلى الديمقراطية ، فدهشت .. ثم تبيّن لى أنك تريد حكما ديمقراطيا تمارس من على رأسه .. سلطاتك الديكتاتورية !

ـ أردت ديموقراطية ترعى آداب القرية ، وحقوق الأبوة .

ـ هذه ديموقراطية قبلية .

فقال سعد زغلول :

ـ هذا حق ، ولكن الديمقراطية الحقيقية تؤخذ ولا تمنح ، فلا تغال فى لومه ..

وقال مصطفى النحاس :

ـ واشتدت الضائقة بالناس ، وحدث ما يحدث عادة فى مثل تلك الظروف من مظاهر الفتن والتطرف . فتركت الأمور تستفحل كأنك لا تبالى . ثم انفجرت بغتة ، فألقيت بالجميع فى السجون ، فأغضبت المسلمين ، والمسيحيين ، والمتطرفين ، والمعتدلين .. وانتهى الأمر بمأساة المنصة ..

فقال أنور السادات :

ـ وجدت أنه لا مفرّ من ضربة حاسمة ، اتقاء لفوضى ، توشك أن تجرّ البلاد إلى حرب أهلية ..

فقال سعد زغلول :

ـ عندما يغتصب الحاكم حقوق شعبه ، فإنه يخلق من هذا الشعب خصما له . وعند ذلك تبدّد قوة البلاد الأساسية فى صراع داخلى .. بدلا من أن توجّه للعمل الصالح .

وهنا قالت إيزيس :

ـ بفضل هذا الابن ، رُدَّت الروح إلى الوطن ، واستردت مصر استقلالها الكامل ، كما كان قبل الغزو الفارسى . وقد أخطأ كما أخطأ سواه ، وأصاب أفضل مما أصاب كثيرون .

فقال أوزوريس :

ـ أرحب بك بين الخالدين من أبناء مصر ، وسوف تمضى بعد ذلك إلى حسابك فى الآخرة مؤيدا بتزكية مشرفة منا .

٣٠

قلّب أوزوريس عينيه فى الخالدين ، وقال :

ـ ها هى حياة مصر ، قد عرضت عليكم بكل أفراحها وأحزانها ، منذ وحدّها مينا ، وحتى استردّت استقلالها على يد السادات . فلعل لبعضكم رؤية يريد أن ينوّه بها ؟

وطلب الملك أخناتون الكلمة ، ثم قال :

ـ أدعو للاستمساك بعبادة الإله الواحد ، باعتباره الخلود والتحرر من أى عبودية أرضية .

وقال الملك مينا :

ـ والحرص على وحدة الأرض والشعب . فالنكسة لا تجىء إلا نتيجة لخلل يصيب هذه الوحدة .

وقال الملك خوفو :

ـ على مصر أن تؤمن بالعمل ، به شيدّت الهرم ، وبه تواصل البناء .

وقال أمحتب وزير الملك زوسر :

ـ وأن تؤمن بالعلم ، فهو القوة التى حققت خلودها .

وقال الحكيم بتاح حتب :

ـ وأن تؤمن بالحكمة والأدب لتنعم بنضارة الحياة ، وتنهل من رحيقها .

وقال أبنوم :

ـ وأن تؤمن بالشعب والثورة ، لتتابع مسيرتها نحو الكمال .

وقال الملك تحتمس الثالث :

ـ وأن تؤمن بالقوة التى تتحقق حين تلتحم بجيرانها .

وقال سعد زغلول :

ـ وأن يكون الحكم فيها من الشعب ، وبالشعب ، ومن أجل الشعب .

وقال جمال عبد الناصر :

ـ وأن تقوم العلاقات بين الناس على أساس العدالة الاجتماعية المطلقة .

وقال أنور السادات :

ـ وأن يكون هدفها الحضارة والسلام .

وهنا قالت إيزيس :

ـ ليضرع كل منكم إلى إلهه ، أن يهب أهل مصر الحكمة والقوة ، لتبقى على الزمان .. منارة الهدى والجمال .

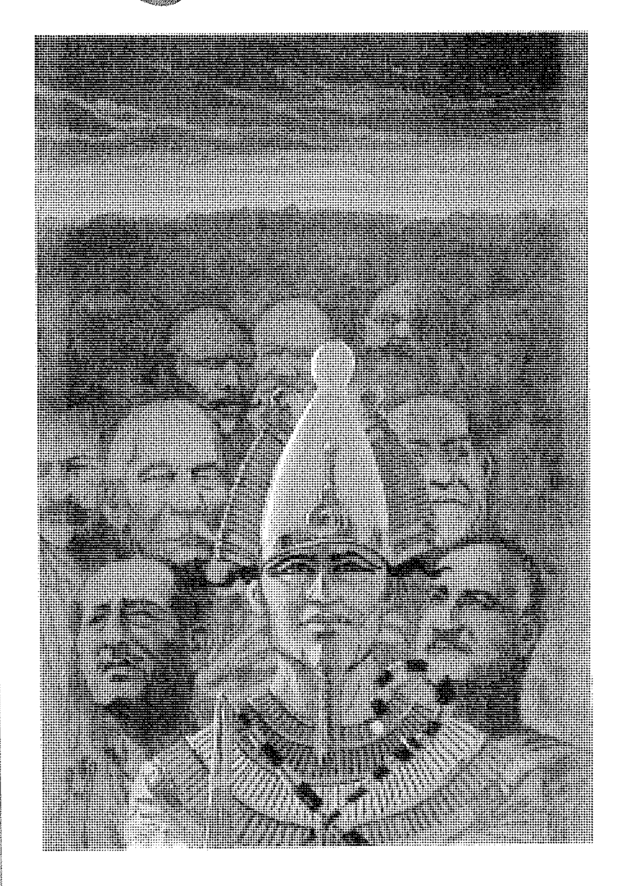
فبسط الجميع أكفهم ، واستغرقوا فى الدعاء .

رقم الايداع . ٨٩/٨٦١٤
الترقيم الدولى · ٦ ـ ٣٣٦ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت، ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

أمام العرش



© دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

هذا الكتاب

● شرفت دار الشروق ، وحصلت من الكاتب الكبير الأستاذ نجيب محفوظ ، على حق إصدار أعماله الأدبية للأطفال .

● ورأينا أن نبدأ برواياته التاريخية ، لتعرف منها أجيالنا الجديدة مسيرة تاريخهم ، وما صنعه الأجداد من حضارة سبقت كل الحضارات .

● فأصدرنا :

١ ـ عجائب الأقدار . ٢ ـ كفاح طيبة .

٣ ـ كفاح أحمس .

● واليوم نصدر « أمام العرش » .. المحاكمة التاريخية لحكام مصر وقادتها من الملك مينا حتى أنور السادات .

● وتمت اختياراتنا لمحاكمات كل الحكام والقادة الذين كانت لهم أدوارهم الرائدة والفاعلة والتى صنعت تاريخ مصر ، منذ كان لها تاريخ ، حتى اليوم .

● إن « أمام العرش » الذى نقدمه ، هو موسوعة تاريخية ، وتربية وطنية لأجيالنا الجديدة .. ليتعلموا منها الكثير الذى يثبّت إيمانهم بمصرهم ، ويحضهم على العطاء الصادق المخلص لها .. أسوة بالسابقين من أبنائها الخالدين .

● وكما التزمنا .. قمنا بتيسير الرواية وتبسيطها ، وتقديمها وفق المتطلبات التربوية والفنية .. مع الحرص على أن تظل بنفس بنائها وأحداثها وشخصياتها .. وإلى حد كبير ، نفس لغتها وأسلوبها .. الأمر الذى يجعل الرواية ، بصيغتها هذه ، يقرؤها الناشئون بفهم تام ، ويستمتعون بأحداثها كاملة ، ويسعدون أنهم تجاوزوا قراءة القصة .. إلى قراءة الرواية .

● وإذا كانت رقعة القراءة عالميا ، لكاتبنا الكبير ، قد اتسعت وتضاعفت بعد حصوله على جائزة نوبل العالمية للأدب ، وأصبحت أعماله تترجم إلى كل لغات العالم ..

فإن دار الشروق يسعدها أن يسهم مشروعها هذا ، فى أن تتسع رقعة القراءة عربيا ، لكاتبنا الكبير ، وتمتدّ لتشمل القاعدة العريضة من أجيالنا الجديدة .. ذخيرتنا وعدّتنا للمستقبل .

والله ولىّ التوفيق ،

محمد المعلم